الفهرست

نبذة تاريخية
العرب في أوروبا

عبدالرحمن الداخل

هشام بن الداخل

الحكم الاول

الدين فى إسبانيا

عبد الرحمن الثانى

زرياب الموسيقي

ابن هانئ والمتنبي

محمد بن عبد الرحمن

عبد الله بن محمد

عبد الرحمن الناصر

الحكم الثاني

الموشحات في الأندلس

هشام الثاني وحاجبه المنصور

نظرات شتى في البلاغة الأندلسية

نظرات
في تاريخ الأدب الأندلسي

مجموعة محاضرات

ألقاها في الجامعة المصرية

كامل كيلاني
بالأوقاف

وصار ما كان من مُلك ومن مَلك
كما حكى عن خيال الطيف وسنان

الطبعة الأولى

١٣٤٢هـ - ١٩٢٤ م .

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية
[illegible]

الاهداء

نشأت ميالا الى الأدب ، وما زال ينمو هذا الميل حتى أصبح كلفا بدراسته

وقد وقفت المدارس المصرية حائلا دون اشباع هذه النهمة ، ووجدت فى الجامعة المصرية الجو الطلق الذى تأنس اليه نفسى ويلتئم مع مزاج تفكيرى

وهذه محاضرات كانت الجامعة المصرية من اكبر المشجعين على اظهارها

* * *

فإلى كل من وضع حجرا فى بناء هذا المعهد العلمى المصرى الحر أو فكر فى إنشائه ، والى أساتذته وطلبته ومشجعيه ، أهدى هذا الكتاب ...

كامل كيلانى

مقدمة

(١)

طلب الي حضرة الدكتور احمد ضيف، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب «تاريخ آداب العرب للأستاذ نيكلسون» لألقيه فى الجامعة المصرية، وهو الفصل الذى أفرده من كتابه الممتع، للكلام على تاريخ الادب العربي في اسبانيا

(٢)

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لى خطره ونفاسته، وعرضت لى عدة ملاحظات على بعض ما جاء فيه، ولم أكد أشرع فى مناقشة أهم نقطه الرئيسية، حتى اتسع أمامى مجال البحث، وشجعنى على مواصلته ما رأيته من النقص الشديد الذي يكاد يلمسه كل مطلع على الكتب العربية التى تناولت الكلام فى هذا الموضوع؛ وما علمته من الحاجة الماسة الى كتاب يوفر على طلبة الادب الاندلسى وغيرهم من المشتغلين به، قليلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الاسفار العربية الضخمة المهوشة، ويحفظ وقتهم الثمين من الضياع!

وذكرت أن جلال نهضتنا القومية لا يتناسب مع جهلنا عظماء لغتنا الذين تركوا أوضح الاثر في بلاغة نستمد منها الحياة والقوة، فلئن كان من الحق ألا يجهل الانسان عظماء الامم ذوي الاثر الكبير في الحضارة العالمية، فهو أجدر ألا يجهل عظماءه قبل كل شيء!

* * *

دفعتني هذه الاعتبارات الى عدم الاقتصار على ترجمة هذا الفصل الممتع، وثم، تخذته مرجعاً من المراجع الكثيرة التي رجعت اليها ، بدلا من اتخاذه موضوع المحاضرة

(٣)

اقتصرت في هذا الكتاب على ترجمة النصف الاول من هذا الفصل ، وقد ألقيت القسم الاكبر من هذه المحاضرات منذ أكثر من عامين في الجامعة المصرية ، ثم نشرت بعضها في احدى الصحف الادبية، فلقيت من الاستحسان والرضى ماشجعني على طبعها

(٤)

ولم يفتني أن أورد في حواشي الكتاب كثيرا من التعليقات الضرورية التي اضطرني ضيق الزمن الشديد ، الى الاكتفاء بالاشارة اليها دون ذكرها ، وقت القاء المحاضرات

وقد تعمدت ذكر امثلة ونماذج شغلت مكانا من الكتاب ماكانت لتشغله ، لو أن كتابا حديثا سبقني الى الاستشهاد بها ، أو لو أني وثقت أن جمهور الأدباء عندنا يعرفونها !

(٥)

(وبعد) فهذه نظرات سريعة ألقيت بها الى تاريخ الأدب الاندلسى ، وسأتبعها بعد قليل بالقسم الثانى منها ، فليقرأها القارىء على أنها مقدمة لدراسة الادب في ذلك العصر ، وليتخذها نواة لكتاب واف نتناول فيه ذلك التاريخ بشيء من التوسع والاسهاب اذا أمكنتنا الفرص وكان في الاجل بقية ...

القاهرة ٢٠ يناير سنة ١٩٢٤ كامل كيلانى

اهم المصادر العربية
التي رجعت اليها

نفح الطيب	للمقرى
المعجب في تلخيص أخبار المغرب	للمراكشى
الاحاطة في أخبار غرناطة	لابن الخطيب
المقدمة	لابن خلدون
تاريخ العبر وديوان المبتدا والخبر	
قلائد العقيان	للفتح بن خاقان
الذخيرة	لابن بسام
وفيات الاعيان	لابن خلكان
فوات الوفيات	لابن شاكر
العرب في اسبانيا	لمحمد دياب
مقدمة الالياذة	للبستانى
العمدة	لابن رشيق
الشعر والشعراء	لابن قتيبة

أهم المصادر الافرنجية

Nicholson : a Literary History of the Arabs.

Dozy : l'histoire des musulmans de l'espagne jusqu'a la conquête de l'andalousie par les almaravides (711—1110 .)

Dozy : Recherches sur l'histoire et litterature de l'Espagne pendant le moyen age.

Encyclopedie Islamique

Pizzi : Letteratura Araba.

نبذة تاريخية
العرب في أوروبا (١)

„ ومما يسترعى النظر، أنه قبل نهاية القرن الاول الهجرى، أثناء حكم الملك الاموى، الوليد بن عبدالملك (٧٠٥ – ٧١٥م) اجتاز المسلمون، تحت قيادة طارق وموسى بن نصير، البحر الابيض المتوسط

وبعد أن هزموا رودريك القوطى فى موقعة كبيرة قريبة من قادس، أخضعوا بسرعة جميع ما بقى من اسبانيا، ولقد طال أمد الشك فى مصير هذا الاقليم الجديد، فان ثورة البربر التى قاموا بها فى افريقيا (٧٣٤ – ٧٤٢ م) امتدت الى اسبانيا وكادت تهدد العرب بزوال مستعمراتهم التى امتلكوها

ولم يكد يزول هذا الخطر حتى عاد المنتصرون فأضرموا من جديد نار الحزازات والسخائم، التى ورثوها عن أسلافهم

(١) معربة عن كتاب الاستاذ نيكلسن المسمى تاريخ آداب العرب
A Literary History of the Arabs

من قيس وكلب ، ثم بدأت الاحزاب السياسية . وبدأ المتبارون من السوريين واليمنيين يلجئون الى سيوفهم مرة اخرى ، فغرقت البلاد فى بحر من الفوضى

عبدالرحمن الأموى

وفى هذه الاثناء حدث أن عبدالرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة الاموى هشام ، فر من المذبحة العامة التى ختم بها العباسيون انتصارهم على الأسرة الأموية

وبعد أن قاسى الشدائد سائحا مدة خمس سنوات ، لا يرافقه فى سياحته الا بدر ، رفيقه الامين ، وصل الى مدينة سبته ، حيث لجأ الى ركن مزعزع بين قبائل البربر

ولكن الفتوة والطموح والثقة التامة بالنفس فى تحقيق ما يصبو اليه ، جعلت عبدالرحمن يفكر فى مشروعه المملوء بالجرأة

فالقى بنفسه فى اسبانيا مؤملا أن يكسب الملك بمساعدة العرب الذين عرف حق المعرفة أن فيهم الكثيرين من الموالين لأسرته

وعلى ذلك فقد أرسل بدرا فى سنة ٧٥٥م برسالة سرية عبر بها البحر، فاتم له ذلك السفير اكثر مما كان يتوقع منه

ولقد كان الحصول على موازرة العملاء لعبد الرحمن سهلا، لانه كان رئيسهم بطبيعة الحال، ولانهم بلا شك سيقاسمونه المائدة اذا نجح، ولكن عددهم كان على كل حال قليلا بالقياس الى سواهم

ولا أمل للداعى فى انجاز مايدعو اليه، الا اذا ساعده أحد الحزبين العظيمين، حزب السوريين أو حزب اليمنيين،

وكان يقود الحزب الثانى حينئذ، الحاكم الضعيف يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى، وضابطه الصميل بن حاتم الذى كان -رغم كفاءته- قاسي القلب، وقد كانا المسيطرين وصاحبي الكلمة النافذة، وكانا يسومان خصومهما سوء العذاب بلا رحمة

فكان ذلك باعثا على مسارعة اليمنيين الى جانب عبد الرحمن، لا حبا فيما يدعو اليه، بل مدفوعين الى ذلك بعامل الاخذ بالثأر والانتقام من أعدائهم، حقا أن هؤلاء الاسبان المسلمين هم من ذلك الجنس البدوى!

هذى العصا من هذه العصية لا تلد الحية الا حية!

***

ثم احتل اشبيليا بعد بضعة أشهر من حلوله اسبانيا، وهزم يوسف والصميل تحت أسوار قرطبة، وجعل نفسه واليا عليها، ورأس فى نفس ذلك المساء أهلها الذين اجتمعوا فى المسجد الكبير لاداء الصلاة، واعتبر حاكم اسبانيا فى مايو سنة ٧٥٦ م

وظل عبد الرحمن يعمل على حماية مملكته وتعزيز قواها أثناء حكمه الطويل الذى استمر اثنتين وثلاثين عاما

وكادت تخرج المملكة من قبضته مرارا – لولا حذقه وهمته – وكم كان العبء الملقى على عاتقه شديدا وشاقا،

فقد كانت أمامه العصبية العربية القوية الشكيمة، التواقة الى الاستقلال بشئونها، والتى تعد الحكومة عدوة لها

ولم يكن ثمت من سبيل الى ردعهم الا بجيش يفوق قوتهم، ولهذا لجأ الى الاستعانة بالجنود المرتزقة (المأجورة) الذين أحضرهم من برابرة افريقيا، ومن ثم نشأت فى الغرب نفس الاسباب التى أدت بالمملكة العباسية الى السقوط، ولم يكن شأن هذه الاسباب هنا أقل اثرا من شأن تلك

الاسباب هناك

ثم كان تعصب المسيحيين الذين كانوا يتطلعون ، بما فيهم الحزب الوطنى الاسباني ، الى رفع النير الاجنبي عنهم ، فجاء ذلك ضغثا على ابالة ، ومن ثم وجب إيجاد قوة خارقة ، لتهيمن على تلك العناصر المتمردة

* * *

نعم ان الدولة التى وضع أساسها عبد الرحمن الناصر لم تعش اكثر من قرنين ، ولـكنها مع ذلك استطاعت أن تخلد لها ذكرا رفيعـا بين سائر الدول بما نالته اسبانيا على يديها من الرقى والمدنية والتهذيب ، مما لم تتمتع به فى زمن ما

ويعزى الفضل فى ذلك كله ، الى المخاطر الجرىء عبد الرحمن الذى لم يغمطه ، حتى أعداؤه ، حقه من الاعجاب والثناء فقـد قالوا إن الخليفة [1] المنصور العباسى سأل حاشيته ذات يوم : «من صقر قريش ؟»

---

(١) ملخصة من كتاب البيان المغرب طبعة دوزى (المجلد الثانى صحيفة ٦١)

فاجابوه : ،، ذلك لغيبك يا أمير المؤمنين ،، (هذا هو الجواب الطبيعي لسؤاله)

،، فانت الذى أخضع جبابرة الملوك وقمع الفتن الداخلية ! ،،

فأجابهم الخليفة « كلا ليس هذا اقبي ! »

« اذن فمعاوية ، أو عبدالملك »

فقال لهم المنصور :

« كلا — انما صقر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية الذى جاب مهامه ، افريقيا بمفرده !

والذى استطاع أن يحقق إربته من غير جيش يناصره فى أقليم مجهول وراء البحر !

والذى استطاع أن يخضع اعداءه ويسحق العصاة ، ويشيد امبراطوريته العظيمة بلا سلاح يؤازره غير سلاح الاناة ومضاء العزيمة !

ان عملا كهذا لم يأته قبله أحد ،، ا . ه

٢

نقلنا هذه القطعة التى افتتح بها الاستاذ نكلسون فصله الحادى عشر، الخاص بموضوع بحثنا اليوم، لتتبينوا منها بأنفسكم، طريقته الخاصة فى الاداء، وايجازه الشديد، وميله الى الاتيان بمعان كثيرة وآراء شتى فى اسطر وجيزة، ولكننا (كما قلنا فى أول المحاضرة) لا يقنعنا مثل هذا القدر اليسير فى الكلام على نشأة أمة نريد أن نتخصص فى دراستها (لا سيما في جامعة) ولا نستطيع أن نمر بهذا الجزء من فصله من غير أن نشعر بنقص، حتى فى بعض نقط جوهرية لا نستطيع اغفالها مهما كان المقام ضيقا

* * *

افتتح الاستاذ نيكلسون ذلك الفصل دون أن يتكلم بشيء عن الاندلس نفسها أو يبين لنا جغرافيتها واهمية موقعها الى غير ذلك، وقد يكون عذره فى هذا اعتقاده بأن طلاب الآداب لابد أن يكونوا ملمين الماماً تاما بمثل هذه الاشياء، وأنهم يعرفون بلا شك موقعها الجغرافى ومكان البلاد المهمة فيها من الخريطة ، وهو عذر لا نتردد فى قبوله

ثم تكلم عن فتح طارق بن زياد وموسي بن نصير لهذه البلاد من غير أن يوضح لنا بايجاز اهم الاسباب التى اطمعت العرب فيها، وروح الفتح التى كانوا متشبعين بها وقتئذ، والظروف الجمة التى اشتركت فى العمل على سقوطها فى أيديهم

نعم أنه كتب بضعة أسطر قليلة جدا فى الفصل الخامس الذى عقده على الدولة الاموية أثناء كلامه عرضا عن فتوحات الوليد وبين اهمية هذه الفتوحات ، وقال إنها كانت أعظم الفتوحات الاسلامية واعودها بالفوائد الجمة ، وأن طارقا اجتاز البحر الى اسبانيا بعد أن خضعت قبائل البربر القاطنة شمال افريقيا ولكنه ـ زيادة على أنه لم يوف هذه النقطة ـ لم يبين لنا نوع الامم التى كانت تقطن هذه البلاد وطبائعهم

ولم يعرفنا كيف وما هي العوامل التى أدت الى استسلامهم للعرب ، وكيف فتح للعرب باب الامل على مصراعيه واتيحت الهم الفرصة فى امتلاكها ، ومن الذى ارشدهم الى الطريق المؤدية الى فتحها وامتلاكها ، بهذه السهولة وفى هذا الزمن اليسير ؟؟

*
* *

فليس يقنع من يتصدى لدراسة الادب أو البلاغة بسرد بضع حوادث مشتتة لاترجع الى أصل، أو يكتفي بالاطلاع على بضع نماذج من البلاغة العربية أو الاندلسية أو سواها، و بضع ملح وطرف وفكاهات، أو يقتصر على معرفة ابلغ ما كتب وأحسن ما قيل، ولا الحد الاقصى الذى وصلت اليه البلاغة التي يعنى بدراستها، ولا الالمام ببضع قصائد سامية الخيال جليلة المعني، ليتعرف آداب أمة معرفة تثلج صدره، وتكون مدعمة على أساس ثابت

نعم لن يقنع بمثل هذا القدر الذى يقتصر عليه مؤرخو الآداب عندنا، من غير أن يدفعه ذلك الى الاستزادة، والى البحث والتدقيق عن تاريخها المفصل وارتباطه بأدبها

وثم يستنتج بنفسه من سير الحوادث العديدة مزاجها وتأثير ذلك المزاج فى أدبها، وليس لنا بد من معرفة نشأتها ونشأة أهم ملوكها واشدهم أثرا فيها وفى أدبها، ومعرفة اخلاق أهلها وادراك أثر تباين اجناسهم ومواهبهم فى الادب. فقد كانوا خليطا من أمم شتى تمتاز كل أمة منهم بمواهب

خاصة بها، فتكون من نسلهم أمة جمعت مواهب لا يستهان بها، تفسر لنا ما نشاهده من اثرهم فى الحضارة ـ فى البلاغة ـ فى الفنون ـ فى الطب ـ فى الجغرافيا وفى كل شيء، مما لا يكاد يصدقه العقل، لذلك لا نستغرب قط من مؤرخي الآداب (الغربيين علي الاخص) أن يعنوا بالتاريخ العام للأمة الي يحللون أدبها ويدرسون بلاغتها عناية لا تقل عن عنايتهم بنفس الادب أو البلاغة التى يتصدون لبحثها

إذن فليس لنا بد من تخصيص بعض هذه المحاضرات لذلك . ليس لنا بد من نظرة اجماليـة فى تاريخ الاندلس لنتعرف منها سكان هذه الجزيرة (او شبه الجزيرة إن شئتم) وماذا آل اليه أمرهم، وما الذى اطمع العرب فيهم الخ، مما نراه جد ضروري لمعرفة المؤثرات التى جعلت الادب الاندلسى ممتازا عن سواه

لان هذه الاسباب التى تختلف عن سواها، جديرة كذلك أن تنتج آدابا مختلفة عن سواها

وكلما ازدادت عناية مؤرخى الآداب بدرس التاريخ العام مفصلا . وتحليل العظماء الذين خطوا للتاريخ طريقه،

كلما ازدادت مقدرتهم على تفهم الروح الادبية وتطورات البلاغة

*
* *

ولئن كان مقام الاستاذ نيكلسون لا يسمح له بشيء من ذلك « كما يقول » فان مقامنا يسمح لنا بشيء قليل منه:

وانا لنجتزيء القول اجتزاء، ونلخص لكم هذا الجزء الضروري الذي اغفله الاستاذ نيكلسون من كتابه فيما يلي:

(٣)
الأنداس

نترك شرح جغرافيتها للسبب الذي تركه من أجله الاستاذ نيكلسون ، ونبدأ بالصميم من تاريخها فنقول:

تغلب على بلاد الاندلس من قديم الزمان أمم شتى من الافرنج واليونان والقرطاجنيين والقوط الذين استوثق لهم الامر بعد الرومان (١) وصاروا المهيمنين عليها عدة قرون قبل الاسلام . ولما سادت المسيحية في الغرب اعتنقوها فيمن اعتنقها، وكان يسمى ملكهم، وقت الفتح الاسلامي، رودريق

ولم يقتصروا على امتلاك بلاد الاندلس فحسب بل تعدوا ذلك الى طنجة فاستعبدوها كما استعبدوا بلاد البربر التي كان اسم ملكها حينئذ يليان، وكان خاضعا لهم، يقطن سبتة ويدين بدينهم

وفي هذه الاثناء كان الفتح الاسلامي يمتد بسرعة

---

(١) هذا مهم جدا لمؤرخي الآداب، لاهمية الاثر الذي ينشأ عن هذا الاختلاط

مدهشة فى زمن الوليد بن عبدالملك

وكان بطله وقتئذ موسي بن نصير الذى ناط به الوليد هذه المهمة ، فذهب فى نفر من المتطوعة حتى ورد مصر وأخذ من جنودها فريقا ، ثم نزل بالقيروان قصبة افريقيا فاخذ معه عددا من الاقوياء الاشداء وفى مقدمتهم طارق ابن زياد البربرى ، وظل يفتتح بلاد البربر حتى بلغ طنجة ففتحها ونشر الاسلام فيها ، وخلف مولاه طارقا عليها بعد أن أخضع يليان ملكها للاسلام

فتح الاندلس

كيف ولماذا فتحت الاندلس ؟ ومن الذى سهل للعرب الطريق الى ذلك ؟ استبداد رودريق القوطى هو اكبر العوامل التى أدت الى ضياع ملكه

فقد كان من عادة كبار القوط بالاندلس ان يرسلوا أولادهم وبناتهم الى طليطلة ليتشرفوا بخدمة ملكهم ، فاذا بلغوا ، زوجهم بعضا ببعض

وحدث أن كان من بين تلك البنات ابنة يليان حاكم

سبته وكانت غاية فى الحسن ففتنت رودريق ، وحاول اخذها مكرهة ، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك

فأضمر الحقد فى نفسه لرودريق ، وحلف ليقوضن دعائم ملكه ، وأخذ ابنته من رودريق ، ثم ذهب من توه الى طارق فأفشى له أسرار القوط ، ودله على أماكنهم وطريقة أخذهم ، فسار طارق باذن من موسى بن نصير على رأس جيش من العرب والبربر الى بلاد الأندلس

قال صاحب كتاب المعجب وهو من رجال القرن السابع الهجري :

« وأول موضع نزله — فيما قال — منها ، المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم

نزلها قبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها ، وعقد الرايات لاصحابه ، فبنى بعد ذلك هناك مسجدا ، وعرف بمسجد الرايات ، وهو باق الى وقتنا هذا ، أسأل الله ابقاءه الى أن تقوم الساعة ![1] »

---

(١) دعوة غير مستجابة

ولما بلغه دنو رودريق، قال خطبته المعروفة، التى لا تقل بلاغتها عن أبلغ خطب القواد المشهورين (١)

(١) قام فى أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه ، ثم قال :

« أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ، ان سمحتم بأنفسكم للموت ، وانى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبرأ منها بنفسي ، واعلموا أنكم — ان صبرتم على الأشق قليلا — استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفر من حظى ،

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من

وما كاد ينتهى منها حتى انبسطت نفوس أصحابه وأجابوه : « قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه ، فاحضر اليه ، فاننا معك وبين يديك » وفى صباح الغد تأهب

بنات اليونان (على التشبيه بهن) الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان (الذهب) المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك — أمير المؤمنين — من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله — تعالى — ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب الى مادعوتكم اليه ، وانى عند ملتقى الجمعين — حامل بنفسى على طاغية القوم ، لذريق ، فقاتله — ان شاء الله تعالى — فاحملوا معى ، فان هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه ، وان هلكت قبل وصولى اليه ، فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يخذلون . »

الجيشان ، وحمل رودريق ، وهو على سريره ، وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله ، وهو مقبل في غابة من البنود والاعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق على أصحابه ، عليهم الزرد ، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض ، وبأيديهم القسى العربية ، وقد تقلدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر اليهم رودريق ؛ خاف وقال : « إن هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا » فداخله منهم الرعب ، فلما رأى طارق رودريق ، قال : « هذا طاغية القوم ، فحمل ، وحمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدى رودريق ، فخاص اليه طارق ، فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره ، وتم لطارق الفوز وانهزم اعداؤه والرعب ملء قلوبهم .

ثم تغلغل طارق فى بلاد الاندلس ، وغنم شيئا كثيراً كان داعية لحسد موسى بن نصير عليه ، وقد بذل طارق وسعه فى استلال السخيمة من صدر مولاه موسى ، بكل الوسائل ، فحمل اليه كل ما غنم ونسب اليه الفتح ، ولكنه

أخفق فى إرضائه رغم ذلك كله

وفى أقل من عشر سنوات تم فتح الأندلس ، إلا بعض أصقاع جبلية فى الشمال الغربى منها

العرب في الانداس

وبعد ذلك أخذ العرب ينظمون البلاد ويؤمنون أهلها، وفرضوا على من لم يسلم منهم جزية أقل بكثير ممـا فرضه عليهم القوط، دون أن يمسوه بأذى ، مما دل على أن دولتهم ستبقى أبد الدهر ، ولـكن حدث عكس ذلك لاسباب سنذ كرها فى موضعها

وليست مسألة التسامح الدينى التى أظهرها العرب فى معاملتهم مسيحيي اسبانيا بالشيء القليل الذى يستهان به، فان نظرة واحدة إلى دول اوروبا فى القرن السادس عشر ، والى تطاحنها المخيف من جراء العقيدة الدينية ـ نظرة واحدة إلى الدماء التى سفكت ، والى الحروب الهائلة التى أقامها التعصب الدينى ـ نظرة واحدة الى المذابح العديدة المتكررة التى سببها التعصب الأعمى للدين ،كمذبحة فاس التى حدثت

فى فرنسا سنة ١٥٦٢ م ومذبحة سان بارثلميو عام ١٥٧٢ م التى حدثت فى باريس وذبح فيها من الهيجنوت ما لا يقل عن ٢٠و٠٠٠ نسمة . ونظرة اخرى الى معاملة مسيحيى اسبانيا للمسلمين بعد أن طردوهم من اسبانيا والى الفظائع التى ترتعد منها الفرائص ، تلك الفظائع التى ذكر صالح الرندى القليل منها دون الكثير ، فى قصيدته النونية التى يقول فيها :

يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهم جور وطغيان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم فى ثياب الذل ألوان!
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان!
يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج المكروه مكرهة
والعين باكية والقلب ولهان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان فى القلب إسلام وايمان

ويقول منها فى موضع آخر:

فجائع الدهر أنواع منوعة
وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها
وما لما حل بالاسلام سلوان

ومنها

يا غافلا وله فى الدهر موعظة
إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه
أبعد حمص تغر المرء أوطان؟
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
وما لها من طوال الدهر نسيان

ومنها :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة

كأنها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة

كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعة

لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ عن آل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟

الا نفوس أبيات لها همم

أما على الخير أنصار وأعوان ؟

والقصيدة طويلة وقد اخترنا أحسن ما فيها، وهي - رغما عن سذاجتها - تدل على شعور صادق ونفس متألمة ثم هي أيضا تقرر حقيقة تاريخية ووقائع ثابتة ليس من شك في وقوعها

أقول :

إن نظرة إلى كل ذلك، بل مالنا نذهب بعيداً - إن

نظرة واحدة الى ما لا تزال ترتكبه حتى أشد الامم مدنية الى الآن من الجرائم والفظائع وصنوف القسوة بسبب التعصب الدينى ، لتبين لكم قيمة هذا التسامح الدينى العظيم الذى أظهره مسلمو الاندلس نحو مسيحيها ، وتجعلكم تكبرون أمره لا سيما فى ذلك الوقت — ولكنه الدين الاسلامى الذى بنى على السلام والصفاء والتسامح هو الذى هداهم الى ذلك .

* * *

« وتداول على بلاد الأندلس ولاة من قبل بنى أمية أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر ، حتى قتل الوليد ابن يزيد ، فاشتغلوا عن مراعاة أقاصى البلاد ، ووقع الاضطراب بافريقية ، والاختلاف بالأندلس أيضاً بين القبائل ، ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشي يجمع الكلمة الى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ، ففعلوا ، وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فسكنت به الأمور ، واتفقت عليه القلوب ، واتصلت امارته إلى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة بنى أمية بست سنين

وفى هذه السنة دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل ، فقامت معه اليمانية ، وحاربه وانتصر عليه واستولى على قرطبة ، دار الملك ، وكان دخوله اياها يوم الأضحى من تلك السنة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢ » (١)

* * *

ولما كنا نعد عبد الرحمن الداخل، مؤسس أكبر دولة اسلامية فى الاندلس ، بحق ، ونعزو له اكبر الفضل فى تنظيم تلك البلاد ، ومحاربة الفوضى ، التى كادت تلتهمها ، لولا جهوده العظيمة ، وسياسته الحكيمة ، التى نهضت بها وكانت سببا فى ازهار الآداب والحضارة العربية فى الاندلس ، ولما كان هذا الرجل فذا فى نوعه وكان اثره فى رقى البلاغة العربية شديداً جداً ، فانا لانرى بأسا من التوسع قليلا فى سيرته الحافلة بالعظائم ، لنلم بما لا بد من معرفته من تاريخ هذا الملك الكبير ، متممين ما أغفله الاستاذ نيكلسون فى الصفحات التالية :

---

(١) ملخصة عن كتاب المعجب فى تاريخ اخبار المغرب

عبد الرحمن الداخل

ولد سنة ١١٣ وتوفى سنة ١٧١ هـ

« لما وقع الاختلال (١) فى دولة بنى أمية ، والطلب عليهم ، فر عبد الرحمن ، ولم يزل فى فراره متنقلا بأهله وولده ، الى أن حل بتربة على الفرات ، ذات شجر وغياض يريد المغرب ، لما حصل فى خاطره من بشرى مسلمة (٢) »

---

(١) هذه عبارة ابن حيان التى نقلها المقرى عنه

(٢) يشير بذلك الى حادثته مع مسلمة بن عبد الملك وهي مشهورة ، وخلاصتها أن عبد الرحمن هذا ، دخل ذات يوم وهو صبي ، على جده هشام ؛ وعنده أخوه مسلمة ، وكان شديد الفراسة بعيد النظر ، فأمر هشام أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : « دعه يا أمير المؤمنين ! هذا صاحب بني أمية ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيرا » قال عبد الرحمن : « فلم أزل أعرف من جدى مزية من ذلك الوقت »

ولا نحسبنا في حاجة الى التنبيه على ما تركته هذه البشرى فى نفسه من الاثر ، وما خلفته فيها من الامل الذى لا حد له فى احراز السلطان ، فاجتاز أشد العقبات المؤيسة ، وأحرز فيما بعد ، ملك بلاد الاندلس

حكاية عن نفسه

قال عبدالرحمن الداخل :

« إنى لجالس يوما فى تلك القرية ، في ظلمة بيت تواريت فيه ، لرمد كان بي ، وابنى سليمان ، بكر ولدى ، يلعب قدامى ، وهو يومئذ ابن اربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبي من باب البيت ، فازعا باكيا ، فاهوى الى حجرى فجعلت ادفعه لما كان بى ، ويأبى الا التعلق ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر ، فاذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود عليها منحطة ، وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا ، ويقول لي « النجاء يا اخي ! فهذه رايات المسودة » فضربت بيدى الى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى ، والصبى أخى معى ، وأعلمت اخواتي بمتوجهي ومكان مقتصدى ، وامرتهن أن يلحقنى ومولاى بدر معهن ، وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية ، فما كان الا ساعة ، حتى أقبلت الخيل فاحاطت بالدار ، فلم تجد أثرا ، ومضيت ، ولحقني بدر ،

فأتيت رجلا من معارفي بشط الفرات ، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري ، فدل على عبد سوء له ، العاملَ فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فاشتددنا في الهرب ، وسبقناها الى الفرات ، فرمينا فيه بأنفسنا ، والخيل تنادينا من الشط : « ازجعا ! لا بأس عليكما » فسبحت حاثا لنفسي وكنت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخي ، فلما قطعنا نصف الفرات ، قصر أخي ودهش ، فالتفت اليه لأقوي من قلبه واذا هو قد أصغي اليهم ، وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته « تقتل يا أخي ! الىّ الىّ ! » واذا هو قد اغتر بأمانهم ، وخشي الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، وبعضهم قدهم بالتجرد للسباحة في اثري ، فاستكفه أصحابه عن ذلك ، فتركوني ، ثم قدموا الصبي ، أخي ، الذي صار إليهم بالامان ، فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه ، وأنا أنظر اليه ، وهو ابن ثلاثة عشر سنة ، فاحتملت فيه ثكلا ملأني مخافة ، ومضيت الى وجهي أحسب أني طائر ، وأنا ساع على قدمي ، فلجأت الى غيضة أشبه ، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم المغرب ، حتى

وصلت الى افريقية ا . هـ »

ذهابه الى افريقيه(١)

وصل الى افريقيه ، وقد ألحقت به أختـه شقيقته ، مولاه بدرا ، ومولاه سالما ، ومعهما دنانير للنفقة وقطعة من جوهر ، فنزل بافريقية وقد سبقه اليها جماعة من فل بنى أمية

* * *

وكان عند واليها ، عبـد الرحمن بن حبيب الفهرى ، يهودى حدثانى صحب مسلمة بن عبد الملك ، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المروانى الذى هو من أبناء ملوك القوم ، واسمه عبـد الرحمن ، وهو ذو ضفيرتين ، يملك الاندلس ، ويورثها عقبه ، فاتخذ الفهرى عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جيء بعبد الرحمن ، ونظر الى ضفيرتيه ، قال لليهودى : ‹‹ ويحك ! هـذا هو ، وأنا قاتله ›› ، فقال له اليهودى : انك ان قتلته ، فما هو به ، وائن

(١) ملخصة عن كتاب نفح الطيب

غلبت على نركه فانه لهو ،، فاقتنع الفهرى بذلك واستصوب رأيه ، وانما احتال اليهودى بهذا الكلام لينقذ عبد الرحمن الداخل من شره

* * *

وأخذ الفهرى يضطهد من نزل به من الامويين ، ويتجنى عليهم ، فلم يسع الداخل الا الفرار من وجهه ، فاستخفى منه يبرقه نحو خمس سنوات ، وتقلب فى قبائل البربر الى أن استقر على البحر عند قوم من زنانه ، وأخذ فى تجهيز مولاه بدر للعبور الى الاندلس لموالى بنى أمية وشيعتهم بها

مهمة بدر

ذهب بدر الى بلاد الاندلس ، وأخذ يفتن فى استمالة أشياع بنى أمية ومواليهم ، وما زال يذكرهم بمكان الداخل منهم ، ويمنيهم باعلاء الدرجة ولطف المنزلة ، حتى أفلح فى اجتذاب اليمانية بعد أن فشل فى استمالة مضر وربيعة ، وكان اليمانية قوما قد أوغرت صدورهم على مضر ، فانتهزوا هذه

الفرصة للانضمام الى جانبه [(١)]

*
* *

وعاد بدر الى مولاه [(٢)] فى مركب ومعه احد عشر رجلا ، فيهم تمام بن علقمة ، فالفوا الداخل يصلى ، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله ، فأسرع بدر اليه سابحا فى الماء ، غير متمهل حتى تصل المركب الى الساحل ، وبشره بنجاح مسعاه ، وخرج اليه تمام فسأله الداخل :

« ما اسمك؟ » فقال له: « تمام » قال: « وما كنيتك؟ » قال : « ابو غالب » فقال : « الله أكبر ! تم أمرنا وغلبنا بحول الله ! [(٣)] » .

---

(١) وساعد على ذلك بعد يوسف بن عبد الرحمن الفهرى صاحب الاندلس فى الثغر وغيبة الصميل

(٢) وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه الى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه الى من يرجونه فى طلب الامر ، فبثوا ذلك فى الجهات مادب به امرهم

(٣) هذا دليل على ميل الداخل الي الاخذ بمذهب التفاؤل ، وفى تاريخه كثير من الادلة على ذلك

ذهاب الداخل الى الاندلس

وبادر عبد الرحمن بالدخول الى المركب ، فتعرض البربر دونه ، ففرق عليهم من المال – حسب اقدارهم – ما ارضاهم به جميعا ، وسافرت المركب وساعدتها الريح حتى حلوا بساحل البيرة فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ فنزل بها ، فأتاه جماعة من وجوه الموالى وبعض العرب فبايعوه ، نخرج الى كورة رية فدخلت فى جماعته وبايعه أهلها وأجنادها ، وانثال عليه الناس انثيالا فقوى أمره ، واستضخم شأنه ، على ممر الأيام حتى دخل قرطبة بعد سبعة اشهر ، كما سنبينه بعد قليل

* * *

وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهرى بالثغر وقد قبض على بعض الثائرين بسرقسطة وقتلهم ، فجاءه رسول يركض من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالى المروانية اليه ، وتشوف الناس لأمره ، فانتشر الخبر فى الجيش لسوء حظه ، وتمرد كثير من الجند ، فسارعوا

بالانضمام الى الداخل

وأمطرت السماء مطرا لم يعهد له مثيل، فازداد موقفه حرجا، ولم يبق فى عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل، فأقبل الى طليطلة واستشار الصميل، فنصح له بالمبادرة الى قتال الداخل قبل أن يستفحل أمره، وأظهر له خوفه من انقلاب اليمانية، ولكن يوسف جبن لما رأى انفضاض الناس من حوله، وافتقاره إلى المال، وشدة ما مني به من المجاعة فى سفرته، وسار بجيشه الى قرطبة رغم نصيحة الصميل

فتح قرطبة

سار عبد الرحمن الداخل الى اشبيليه فاحسن لقاءه رئيس عربها أبو الصباح اليحصبي، وقر الرأي على أن يقصدوا به إلى قرطبه (دار الامارة) فلما أقبل اليها الداخل، خرج له يوسف وكانت المجاعة التى شملت أهل الاندلس ست سنوات قد أضعفت قواهم، فانتهت المعركة بفوز الداخل، وفرار يوسف الفهرى والصميل

* * *

وما زال عبد الرحمن دائبا ، يذلل كل عقبة بحزمه وشجاعته ، حتى ثبت ملكه بين تلك العواصف التى كادت تقتلعه مرارا ، فظفر بالفهرى بعد قليل وقتله ، ثم ثنى بالصميل فحبسه وأوعز اليه من خنقه

وقد افتن فى التنكيل بالثوار ليعتبر أعداؤه بمصرعهم ثم استوحش من العرب ، فاكثر من اتخاذ البربر ، وما زال يعمل دائبا على توطيد الأمن فى الأندلس ، والسير بها فى طريق الحضارة ، حتى وافته منيته سنة ١٧١ فترك مملكة ثابتة الدعائم ، زاهرة بالعلوم والآداب ، يرف على ارجائها علم السلام والرفاهية

اخلاق

عبد الرحمن الداخل

— ١ —

صرامته

كان الداخل أمل واسع يصبو الى تحقيقه ، وهو امتلاك بلاد الاندلس،[١] وقد تشبعت نفسه بهذه الفكرة الجريئة حتى امتزجت بلحمه ودمه ، وحتى هيمنت على كل مشاعره ، فواجه أشد الأخطار فى سبيل تحقيقها ، ولما ساعده الجد على إدراك اربته ، لم يستطع أن يفكر لحظة واحدة فى التهاون بأقل شىء يحتمل أن يفضى إلى انتكاث امره بعد تمامه ، ومن ثم لم يحجم عن قتل كل من ناوأه أو

(١) كما طمع فيما بعد امتلاك الشرق أيضاً ، والى نزع الملك من أيدى العباسيين اعدائه وقد هم بذلك ، فلم يمنعه عن انفاذه الا اشتغاله بتسكين القلاقل والقضاء على الثوار ببلاد الاندلس ، وسيمر بك ذلك في حينه

وقف فى طريقه ، كائنة ما كانت منزلته عنده ، أو قرابته الشديدة منه ، حتى كان يفضل أن ينسب إلى العقوق ونكران الجميل فى سبيل توطيد ملكه

وحسبك دليلا على صرامته فتكه بالمغيرة ، ابن أخيه [1] ، حين رآه يطمع فى اجتذاب الأمر اليه ، وقتله أبا الصباح اليحصبي زعيم اليمانية الذى مر ذكره والذى ساعده على قهر يوسف الفهرى ، وقسوته الشديدة فى معاملة مولاه بدر الذى يعزى له اكبر الفضل فى نجاحه

---

(١) وقد عدوا ذلك من أوجه الشبه بين الداخل والمنصور ، فقد قاسوه به في رجوليته وحزمه وصرامته ، واجترائه علي الكبائر ، وضبط المملكة ، وموافقته فى أن أم كل منهما بربرية وأن كل منهما قتل ابن أخيه ، فان المنصور قد قتل ابن السفاح كما قتل الداخل المغيرة

ولعل هذا التشابه فى أخلاقهما يبين لنا السر فى اعجاب المنصور به ، وتلقيبه اياه بصقر قريش ، وسنورد بعد قليل وصف المنصور اياه ، الذي ملأه اعجابا به وثناء عليه ، ولقد صدق علي بن أبى طالب فى قوله ان الارواح جنود مجندة ، ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف

ولكن ما أجدرنا أن نسمى هذه الصرامة حزما فقد كان مركزه غاية فى الخطورة والحرج ، وكان فى أشد الحاجة إلى الطمأنينة على ملكه المزعزع ، فاتخذ من صرامته وسيلة الى تثبيت ملكه بين تلك الفتن والعواصف الهوجاء ، وسلك أمثل الطرق وأخشنها فى تأديب العصاة والثائرين حتى استطاع أن يستبدل الفوضى بالنظام ، والخوف بالامن والطمأنينة

٢
ديمقراطيته

ولم يكن مع صرامته ، وتنكيله بأعدائه ، متكبراً جافى الطباع ، بل كان على العكس من ذلك ديمقراطيا وديما دمث الأخلاق ، فكان يقعد للعامة ، ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصل اليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم الى رفع ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه ، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه

٣

انصافه

وكان عادلا منصفا ، راجح الحلم واسع الاناة ، لا يملك زمامه هواه ، وفى الحكاية التالية مثال حسن ، نتبين منه إخلاصه للحق ، وتقديره لمواهب الرجال :

* * *

لما فتح سرقسطه ، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من يؤبه به من الجند ، فهنأه بصوت عال ، فقال : " والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوقى ، فأوجب على ذلك أن أنعم فيه على من هو دونى ، لاصليتك ما تعرضت له من سوء النكال ! من تكون ، حتى تقبل مهنئا ، رافعا صوتك ، غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة ، ولا عارفا بقيمتها ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟ وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع فى مثلها من عقوبة ! "

فقال : « ولعل فتوحات الامير يقترن اتصالها، باتصال جهلى وذنوبى ، فتشفع لى متى أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيها الله ! »

فتهلل وجه الأمير ، وقال : « ليس هذا باعتذار جاهل ! » ثم قال : « نبهونا على أنفسكم ، اذا لم تجدوا من ينبهنا عليها ! » ورفع مرتبته ، وزاد فى عطائه .

(٤)

ميله الى الجد

ولولا تكاليف العلى ، ومغارم

ثقال، وأعقاب الأحاديث في غد

لأعطيت نفسي في التخلى مرادها

فذاك مرادى مذ نشأت ومقصدى (١)

ولا نحسبنا فى حاجة الى التدليل على ميل الداخل الى الجد وعزوفه عن الملاهى ، فقد يكون فى كل ما مر أمثلة مقنعة، يتجلى فيها دؤوبه وميله الى الجد ، على أننا لا نرى ،

(١) الشعر للطغرائى

مع ذلك ، بأسا من الاستشهاد بالمثالين التاليين :

« لما خرج من البحر أول قدومه إلى الأندلس، أتوه بخمر ، فقال : « إني محتاج لما يزيد فى عقلى ، لا لما ينقصه ! »

ولما اهديت له جارية جميلة ، نظر اليها وقال :

« إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن انا اشتغلت عنها بهمى فيما أطلبه ، ظلمتها ، وان اشتغلت بها عما أطلبه، ظلمت همى ، ولا حاجة لى بها الآن » وردها على صاحبها

وهكذا أنساه الطموح الى المجد، وشغلته فكرته النبيلة عن مواطن اللهو والسرور

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

(٥)

فضله

كيف وصفه أبو جعفر المنصور

وقد اعترف له بمزاياه النادرة التى انفرد بها دون غيره، أبو جعفر المنصور الذى كان (كما يقولون) ، بصدق حسه، وبعد غوره ، وسعة احاطته ، يسترجح الداخل كثيرا، ويعدله

بنفسه ويكثر ذكره ، ويقول :

« لا تعجبوا لامتداد أمرنا ، مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ، ومضاء عزيمته ، حتى قذف بنفسه فى لج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته . واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصبيهم ، وذل أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى ، لا يكذب مادحه [1] »

أوصافه

كان أصهب ، خفيف العارضين ، بوجهه خال ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، له ضفيرتان ، أعور ، أخشم [2]

---

(١) هذا أبدع ماقرأناه فى وصف الداخل (٢) لايشم

أدبه

شعره (١)

— ١ —

ورث الأمويون عن اسرتهم حب الشعر والموسيقى والبلاغة الراقية ، وقد هاموا بها، واحبوها اكثر مما أحبوا القرآن ، ولئن صحت نسبة تلك الأبيات المشهورة ، التي قيلت في النخلة ، الى صقر قريش ، عبد الرحمن الأول ، لدل ذلك على أنه يجن تحت منظره الخارجي الخشن، احساسا غاية في الرقة ، فقد حكوا انه رأى في احدى حدائق قرطبه نخلة منفردة ، جلبوها من سوريا ، وإنه ليشخص ببصره اليها ذات يوم ، إذ تذكر أرض وطنه ، وأحس بمرارة النفى والغربة ، فقال (٢)

---

(١) معربة عن كتاب الاستاذ نيكلسون

(٢) لم يتح لنا الرجوع الى الاصل العربي لتلك الابيات، وقت

يا نخل ! أنت فريدة مثلى
في الارض ، نائية عن الأهل

القاء المحاضرة ، فاضطررنا الى ترجمتها حينئذ ، ولا بأس من اثبات تلك الترجمة بعد ان عثرنا بأصلها العربي ، لتكون في هذه المرة شرحا للابيات :

« أيتها النخلة ! أنت هنا غريبة في بلاد المغرب أنت بعيدة عن موطنك الشرقي ، أنت شبيهي في التعاسة ـ ابكي أيتها النخلة ! ولكنك لا تستطيعين البكاء ، أيتها الشجرة الخرساء الكسيفة البال . ليس مثلك من يرثي لحالي ! آه ! لشاركتني في البكاء ، لو كان لديك من دموع تسكبينها ، على رفاقك على شواطىء الفرات ! ولكنك لا تذكرين شيئاً مما هنا لك في تلك الاحراش الباسقة كما اذكر أنا ! فلقد انساني اصدقائي كراهيتي للاعداء !

وقد ورد في الشطر الاخير بدل كلمة الاعداء في الاصل بنو العباس

O Palm, thou art a stranger in the West,
Far from thy Orient home, like me unblest.
Weep! But thou canst not. Dumb, dejected tree,
Thou art not made to sympathise with me!
Ah! thou wouldsts weep, if thou hadst tear to pour,
For thy companions on Euphrates'shore,
But yonder tall groves thou remembrest not
As I, in hating foes, have my old freinds forgot.

نبكى ، وهل تبكى مكممة
عجماء ، لم تجبل على جبلى !
ولو أنها عقلت ، إذن لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت ، وأخرجنى
بغضي بنى العباس عن أهلى

وقد ذكر له المقرى أبياتا اخرى قالها فى النخل ،، ا.هـ

٢

والأبيات التى عناها نيكلسون هى :
تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : ,,شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى ،،
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى
يسح ويستمرى السماكين بالوبل

ولقد تتبينون من هذه الأبيات، حنينه وشغفه ببلاده وعطفه على وطنه

وقد صدق، فأى إنسان حساس شريف النفس، يستطيع أن يتلهى عن وطنه الذى نشأ فيه، ولو بكل نعيم العالم ولذاته؟ وليس مثل عبد الرحمن من ينسى بلاده التي انطبع حبها فى شغاف قلبه. فلقد مات وهو يذكرها، وقد حن إليها مراراً فى أشعاره

ولن يكون عبد الرحمن الداخل اقل حنيناً إلى أرضه ووجداً إلى عيشه الاول ـ من تلك العربية المشهورة التى آثرت عيشها الخشن على كل ما لقيته فى قصور ملوك بنى أمية من صنوف اللذات وافانين الترف واللهو، وقالت بيتها المشهور:

ولبس عباءة وتقر عينى أحب الي من لبس الشفوف

٣

وقد روى له الشيخ محي الدين بن على التميمى المراكشى صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الأبيات التالية التى بعث بها الى اخته وهى الشام وهي:

أيها الراكب الميمم ارضي

اقر من بعض السلام لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرض

وفؤادي وساكنيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنا

وطوى البين عن جفوني غمضى

قد قضى الله بالفراق علينا

فعسى باجتماعنا سوف يقضى !

ولئن صحت نسبة هذه الاشعار اليه وعرفنا من عزم قائلها : وهمامة نفسه التى اصغرت كل مأرب، ماعرفناه ـ فانّ قوله فى البيت الأخير

قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

يدل على احلام وامانى بعيدة ، كان يجيش بها صدره ، وتنطوى عليها نفسه الوثابة التى لم تقف عند حد

نعم يدل على أنه كان يطمح لو مد الله فى عمره الى غاية يصغر أمامها كل ما أدركه من ذلك العظيم الذي كان يعد الحصول عليه حلما . . !

وماذا يريد بقوله : «فعسى باجتماعنا سوف يقضى» الا أنه كان يحلم أيضاً بالتغلب على الدولة العباسية ، التي اجتثت شأفة الامويين ، والقضاء عليها ، بعد أن يوطد ملكه فى الاندلس ، وليس يعلم الا الله وحده ماذا كان يكون لو لم تعترضه تلك العقبات المؤسفة ، من إباء العرب وعصبيتهم ، وتمرد المسيحيين من الاسبان ، الى غير ذلك . وربما كان اشتغاله باطفاء تلك الفتن ، وتوطيد دعائم ملكه وسحق العصاة ، الأمر الذي استغرق كل مدة حكمه على طولها ، هو الذى جعل هذه الأمنية في عداد الأحلام ! ولقد يعوز هذا الاستنتاج ، البرهان التاريخى ، ولكننا قد نجد من وصف العلامة ابن خلدون لعبد الرحمن الداخل ما يزيدنا استمساكا بهذا الرأى ويجعلنا أميل إلى ترجيحه ، قال :

« وكان (عبد الرحمن الداخل) يدعو الى المنصور ، ثم قطعها لما تم له الملك بالاندلس ، ومهد أمرها ، وخلد لبنى مروان السلطان بها ، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلحم الثوار فى نواحيها ، وقطع دعوة العباسيين من منابرها وسد المذاهب منهم دونها »

فلقد تتبينون من ذلك طريقته الحكيمة فى التدرج من صغير الأمر إلى كبيره ، فقد كان يطمح ، فى أول أمره ، إلى جمع الأمر فى يده . ولو تحت سلطة العباسيين ، وساعده ذلك على بلوغ إربته ، فلما تمت له هذه الخطوة الكبيرة ، خطا خطوة ثانية لا تقل عنها شأناً ، فناوأ الدعوة العباسية وعمل على إبطالها ، فنجح فى سعيه ، واستقل بأعباء هذا الملك العظيم ، ونظم البلاد ومحق العصاة وأخمد الفتن ، بعزيمة صادقة ، وهمة دائبة لا تعرف الكلال ، فلا غرو إذا استنتجنا من قوله :

قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

أنه كان يحلم أيضاً بملك العباسيين ، وتمنيه نفسه بالتغلب عليهم ! وهذا من استنتاجنا الخاص ، وربما أيدناه أو عدلنا عنه ، إذا اطلعنا على ما يؤيده أو ينفيه فيما بعد (١)

---

(١) ناقشنا بعض اخواننا فى هذا الاستنتاج في حينه ؛ واتهمنا بعضهم بالمغالاة والاغراق في الخيال ، وحسبوا أننا أسرفنا فى تأويل هذا البيت ، وزعم بعضهم ، بكل جرأة ، أن تاريخ عبد الرحمن الداخل نفسه يناقض هذا الاستنتاج ويثبت

٤

ومما نختاره من شعره قوله — بعد أن استقامت الدولة له — حين بلغه عن بعض من أعانه أنه قال : " لولا أنا ،

فساده ، وقد أصررنا حينئذ على رأينا حتى نعثر بمستند تاريخي يعززه أو ينفيه ، أما الآن فقد توافرت لدينا الادلة التاريخية ، التي لا تدع مجالا للشك في صحته ، واليك ما قاله ابن خلدون في ذلك

« وفى سنة ست وأربعين ومائة ، سار العلاء بن مغيث اليحصبي من أفريقية الى الأندلس ، ونزل بباجة الاندلس داعيا لأبي جعفر المنصور ، واجتمع اليه خلق ، فسار عبد الرحمن اليه ولقيه بنواحي أشبيلية فقاتله أياما ثم انهزم العلاء ، وقتل في سبعة آلاف من اصحابه ، وبعث عبد الرحمن برءوس كثيرة منهم الى القيروان ومكة ، فالقيت فى أسواقها سرآ ، ومعها اللواء الاسود ، وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك وقال ما هذا الا شيطان ، والحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاما هذا معناه (فى رواية اخرى أنه قال : « عرضنا هذا البائس (يعنى العلاء اليحصبي) للحتف ! ما فى هذا الشيطان مطمع ! فالحمد لله الذى صير هذا البحر بيننا وبينه ! ») وكثرت ثورات رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ، وتاسره

ما توصل لهذا الملك ، ولكن منه أبعد من العيوق ،، وأن آخر قال : ،، سعده أعانه لا عقله ،، فقال مفندا تلك المزاعم :

لا يلف يمتن علينا قائل :
،، لولاى ماملك الأنام الداخل ! ،،

ملكه ، ولقى منهم خطوبا عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراب فى آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم ، فرجع الى اصطناع القبائل من سواهم ، واتخاذ الموالى ، ثم غزا الافرنج والبشكنش ومن وراءهم ورجع بالظفر »

وهنا يقول ابن خلدون :

« وكان فى نيته أن يجدد دولة بني مروان بالمشرق فمات دون ذلك الامل »

ومما قاله المقرى فى ذلك :

« وأشاع (الداخل) سنة ١٦٣ ، الرحيل الى الشام ؛ لانتزاعها من بنى العباس ، وكتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالاندلس فى طائفة ، ويذهب بعامة من أطاعه ، ثم اعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين الانصارى الذي انتزى عليه بسرقسطه ، فبطل ذلك العزم » ا . هـ

سعدى ، وحزمي ، والمهند ، والقنا
ومقادر بلغت ، وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب
نجم يطالعنا ، ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا
أيروم تدبير البرية غافل ؟
ويقول قوم : « سعده لا عقله »
خير السعادة ما حماها العاقل !
أبنى أمية ! قد جبرنا صدعكم
بالغرب رغما ، والسعود قبائل
ما دام من نسلى إمام قائم
فالملك فيكم ثابت متواصل

***

وقوله يجيب بعض من وفد عليه من قومه ، لما سأله الزيادة فى رزقه ، واستقل ماقابله به ، وذكره بحقه ، فكتب اليه بالأبيات التالية :

٣ ـ نظرات

شتان من قام ذا امتعاض
منتضى الشفرتين نصلا
فجاب قفراً ، وشق بحرا
مساميا لجة ومحلا
دبر ملكا ، وشاد عزا
ومنبرا للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى
ومصر المصر حين أخلا
ثم دعا اهله إليه
حيث انتأوا . أن هلم أهلا!
فجاء هذا طريد جوع
شديد روع ، يخاف قتلا
فنال أمنا ، ونال شبعا
ونال مالا ، ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا
أعظم من منعم ومولى؟

وفى هذه الأبيات والتى قبلها صورة صادقة نتمثل منها نفس عبد الرحمن الوثابة، ونطالع فيها صفحة موجزة من تاريخه الحافل بالعظائم.

نثره

أما نثره ، فقد حلق فى سماء عالية من البلاغة ، لم يسم اليها شعره الجميل ، الذى يعجبنا فيه جمال الصدق المتحلى به ، وتأجج العاطفة المنبعث عنها ، وطموح نفس قائله ، وما ينفحنا به أثناء قراءته من الذكريات الجليلة ، وما نحسه فيه من العزمات الصادقة ، التى تزيد إعجابنا به

* * *

ولكن نثره ـ زيادة على أنه قد جمع كل هذه الميزات النادرة ـ يمتاز عن شعره بما فيه من الانسجام والعمق والإحكام وإن شاركه فى الدقة والحسن

وإليكم بضع أمثلة من نثره ، نستدل بها على شدة عارضته ، وقوة حجته ، وعلو طبقته فى البلاغة ، سواء فى ذلك بداهته ورويته :

— ١ —

محادثته

ونبدأ بالحكاية التالية التى نتمثل فيها سرعة جوابه وحضور ذهنه، ووفور أدبه:

حكوا أنه كان فى بعض مجالسه، فمثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه، فقال له: "يا ابن الخلائق الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فررت، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قلل المال، وكثر العيال، وشعث الحال، فصير إلى نداك المآل، وأنت ولي الحمد والمجد، المرجو للرفد".

فأجابه عبد الرحمن مسرعاً:

"قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقالك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والالحاح فى الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حزبك أمر، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك، كيما تستر عليك خلتك، وتكف

شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا ـ عز وجهه ، ـ باخلاص الدعاء ، وصدق النية ،،

قالوا : «وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يعجبون من حسن منطقه ، وبراعة أدبه . وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاها فى مجلسه »

*
* *

أوجز ما يقال فى هذه الكلمة ، أنها تشريع حكيم ، وقانون عادل ، سنه لشعبه فى هذه الاسطر القليلة ، حتى لا يتورط أحد منهم في مثله مرة اخرى ، وقد لاءم فى هذا التشريع الموجز ، بين ما تتطلبه ديمقراطية نفسه ، وما تقتضيه أرستقراطيـة الملك ، وجمع فى ذلك الجواب بين الحزامة والاريحية ، والتعنيف والعطف ، ولم يعزب عن باله أن حرمانه هذا السائل .. على ما قد يكون به من عوز ـ قتل له ، ومجال لشمانة أعدائه به ، كما أن صلته من غير تقريع شديد ، قد تفتح عليه بابا يستنفد كل ما فى خزائنـه من المال ، دون أن يفى بحاجة كل محتاج ، وفى جملته الأخيرة أبدع رد على عبارة التملق التى ختم بها ذلك السائل كلامه .

أما الأسلوب الذى صيغت فيه هذه الكلمة المرتجلة فهو فى نظرنا ، فى ذروة البلاغة العربية ، لنصاعته ودقته ، وهما ميزتان كاد ينفرد بهما اسلوبه من بين الأمراء

*
* *

وإليكم مثالا آخر من بلاغته :

حدث بعض موالى عبد الرحمن الخاصين به ، أنه دخل عليه ، إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد (١) وهو مطرق شديد الغم ، فرفع رأسه إليه وقال :

„ ما عجبى إلا من هؤلاء القوم ، سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا

---

(١) كان الداخل بعد ان استتب ملكه بالاندلس ، شديد الارتياح الى وفود أقاربه من بنى مروان ، ليشاهدوا أنعم الله عليه فتوافدوا عليه ، وكان منهم اليزيدى وعبيدالله ابن ابان بن معاوية وهو ابن أخي الداخل ، وكانا تحت تدبير يبرمانه في طلب الامر ، فوشى بهما أحد موالى الثانى ، ومما قاله بعد قتلهما : « اعظم ما أنعم الله به علي ، بعد تمكنى من هذا الأمر ، القدرة على ايواء من يصل الىّ من أقاربى ، والتوسع في الاحسان اليهم ، وكبرى في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم ، بما منحنى الله من هذا السلطان الذى لامنة على فيه لاحد غيره »

بلغنا منه مطلوبنا ، ويسر الله أسبابه ، أقبلوا علينا أمام السيوف ، ولما اويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله به حتى أمنوا ودرت عليهم أخلاق النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله ، فخذلهم بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضا ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغييرنا عليه ، ما نتوقع نحن منه ، وإن أشد ما علىّ فى ذلك أخى ، والد هذا المخذول ، كيف تطيب لى نفس بمجاورته ، بعد قتل ولده ، وقطع رحمه ، أم كيف يجتمع بصرى مع بصره ، اخرج اليه الساعة فاعتذر اليه ، وخذ خمسة آلاف دينار ادفعها إليه ، واعزم عليه فى الخروج عنى من هذه الجزيرة الى حيث شاء من بر العدوة (١) „

---

(١) قال : « فلما وصلت الى ابن أخيه ، وجدته أشبه بالاموات منه بالاحياء ، فآنسته وعرفته ودفعت له المال ، وأبلغته الكلام ، فتأوه وقال : « ان المشؤوم لا يكون بليغاً فى الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه ، وهذا الولد العاق الذى سعى فى حتفه ،

— ٣ —

خطابته

أما خطبه فلم يصلنا منها إلا بضع كلمات وجيزة ، كان يحث بها همم أصحابه ، ويلهب نار الحماس فى قلوبهم ، فمن ذلك قوله لهم حين اشتد الكرب بين يديه ، يوم حربه مع الفهرى :

« هذا اليوم هو أسس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون (١)

قد صرى ما سعى فيه الى رجل طلب العافية وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معسرة الزمان وكله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولا مرد لما حكم فيه به وقضاه فى الحركة الى بر العدوة »

قال : « فلما رجعت الى الامير ، وأعلمته بقوله قال : « انه نطق بالحق ، ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه ، والله لو قدر أن يشرب دمي ما عف عنه لحظة ، فالحمد لله الذى أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم ، وأذلهم بما نووه فينا »

(١) وقد ذكر له المرحوم محمد دياب بك في كتابه « تاريخ

— ٣ —

كتابته

ولعل أسمى ذروة وصلت إليها بلاغته ، هى ما نشاهده

العرب في اسبانيا ، خطبة قالها رداً على تمام (الذى قدمنا ذكره فى ص ٢٩ .) حين عرض عليه امارة الاندلس باسم الوفد الذى أتى معه ، متقدما اليه ، قائلا :

« أجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة ، فيسعك أن تبنى فيها ملكا مشيد الاركان ، موطد الدعائم ، على أساس أقوى من الجبال ، معتمداً على عزائمهم القوية ، وطاعتهم الصادقة ، لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر ، ولكنك لست وحدك ، بل بجانبك فتيان أشداء من أبناء من فتحوا الغرب ، وشعوب ترغب فيك وتدعوك اليها ، ونحن جميعاً نهب الى الوغي ، ونبذل الارواح فى سبيل ارتقائك الى عرش الامارة التى تلقى مقاليدها اليك ، وتحفظ بنيانها من أن يثلم »

فسكت عبدالرحمن هنيهة يتوقع منه أن يتمم خطابه ، لكنه شعر أن لوفد ينتظر اجابته فخطبهم بقوله :

أيها السراة الامجاد ! اجابة لرغائبكم ، وسعياً وراء أمانيكم في اصلاح شؤون مسلمي اسبانيا ، أذهب معكم ، باذلا النفس، فى

فى رسائله مع مولاه بدر ، حين غضب عليه ، لشدة عجبه وامتنانه عليه ، ففى تلك الرسائل نتمثل ذلك القلب الكبير مضطربا جائشا ، كما يصطخب الخضم الزاخر ، عند اشتداد العاصفة ، وثم نرى صفحة مشرقة من البلاغة العربية ، متفردة بأسلوبها القوى ، ومعانيها الباهرة :

ونبدأ بما كتبه إلى مولاه بدر ، ردا على رسالة بعث بها اليه (١) قال :

سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة ، فاذا صدقت عزائمكم ، ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز ، رأيتم منى أخا ثقة يقاسمكم الشقاء والهناء ، يعلم الله أنى لا أخشى الشدائد ولا اهوال الحروب ولا أرهب الموت الاحمر ، فقد عركني الدهر وعركته ، وكثيراً ماركبت متون الاخطار على حداثة سنى ، واذا كان مايدعونى اليه هو رغبة مسلمي الاندلس الاشراف ، فأنا ألبي نداءهم وأقبل أن أكون اميرهم ، وحامى ذمارهم ان شاء الله »

* * *

ونحن نرتاب فى اسلوب هاتين الخطبتين ، لضعفه وبعده عن اسلوب ذلك العصر ، ولعلها ترجمتا عن لغة أجنبية — بعد ان ضاع اصلها العربى ، أو لعلنا واهمون في ذلك !

(١) بعد ان سعى بدر فى تأسيس دولة عبد الرحمن ، وصحبه

„ وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطلك، ودناءة أدبك، ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى ما أردت أن تبني لنفسك عندنا مقاتا، أتيت بما يهدم كل مقات مشيد فما نمن به — مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته — استخرنا الله من أجله، على أن أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إدلالك، فهل ذلك يقمع منك ويردعك، حتى يبلغ بك

عجب وامتنان فبدأ يقول: « بعنا أنفسنا، وخاطرنا في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصي أمله، » وقال مرة حين أمره بالخروج الي غزاة: « انما تعبنا لنستريح أخيراً، وما أرانا الا في أشد مما كنا » واكثر من ترديد مثل هذا الكلام وأشباهه فأعرض عنه الداخل وهجره، فتمادي بدر في تبرمه، حتى كتب له رقعة منها: « أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر، والاقدام على تشتيت نظام مملكة، واقامة أخرى، غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي اعدائي، وأضعف أمري، ونهي عند من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويخدني على الطمع والرجاء، وأظن اعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم، ما بلغوا بي أكثر من هذا، فانا لله وانا اليه راجعون! »

ما نريد – إن شاء الله – فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ، إذ شرك مكتوب فى مثالبنا ، وخيرك ممدود فى مناقبنا [١] ».

* * *

وبعث إليه بدر برسالة [٢] فكتب يجيبه :

« إن لك من الذنوب المترادفة ، مالو سلب معها روحك ، لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل إلى رد مالك ، فإن تركك بمعزل ، فى بلهنية الرفاهية ، وسعة ذات اليد ، والتخلى من شغل السلطان ، أشبه بالنعمة منه بالنقمة ، فايأس من ذلك ، فإن اليأس مريح ».

* * *

وكتب اليه بدر يستعطفه فى يوم عيد ، [٣] فكان

---

(١) وقد أشفع عبد الرحمن هذا الوعيد بتوجيه من استأصل ماله ، وألزمه داره ، وهتك حرمته ، وأسقط جاهه

(٢) يقول فيها : « قدطال هجرى ، وتضاعف همي وفكري ، واشد ما على كونى سليبا من مالى ، فعسى ان تأمر لى باطلاق مالى ، وأتحدبه في معزل ، لا أشتغل بسلطان ، ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت »

(٣) لما وافاه العيد ، ورأى حاجة من يلوذ به ، وهمهم بما

جوابه عليه أن أمر بنفيه عن قرطبـة إلى أقصى الثغر ، وكتب له فى ظهر رقعته :

« ألم تعلم أنك لم تزل بِـمَقْـتك ، حتى ثقلت على العين طلعتك ثم زدت الى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت الى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا باقصائك إلى أقصى الثغر ، فبالله الا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك منى الدنيا

ورأيتك تشكو بفلان ، وتتألم من فلان وما تقولوه عليك ، وما لك عدو أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ، فاقطعه قبل أن يقطعك »

يفرح به الناس ، كتب الى عبـد الرحمن الداخل رقعة منها : « وقد أتى هذا العيد الذى حالفت فيه من أساء اليك ، وسعى فى خراب دولتك ، ممن عفوت عنـه فتبدلك النعمة في ذراك ، واقتعد ذروة العز ، وأنا على ضد من هذا ، سليبا من النعمة ، مطرحا في حضيض الهوان ، أيأس مما يكون ، واقرع السن على على ما كان »

أثر الداخل فى الحضارة الاندلسية

نظرة ختامية

وجه الداخل عناية خاصة إلى الآداب والعلوم والفلسفة وأكثر من عقد الاجتماعات الأدبية والعلمية والفلسفية ، بالرغم من اشتغاله بإطفاء الثورات ومكافحة المغيرين ؛ والقضاء على الفوضى التى كانت تنذر البلاد الأندلسية بالخراب بين آن وآخر .

*
* *

ولم يشغله ذلك عن العناية بفنى الزراعة والعمارة أيضا فعمل على انهاضهما ، وما زال بهما حتى بلغا شأوا بعيدا ، وأصبحت قرطبة على عهده تحاكى مدينة بغداد ، فى اتساع شوارعها ، وضخامة مبانيها ، وكثرت فيها الحمامات والفنادق ، وانتشرت البساتين على طول ضفة الوادى الكبير ، وزاد عدد المدارس التي أكثر من بنائها

* * *

وشرع فى بناء الجامع المشهور بجامع قرطبة سنة ١٧٠

واخرج عليه مائة الف دينار (كما يقولون)، وقد ذكروا أن ذلك الجامع كان فذا فى نوعه، وأن من بدائعه احتواءه نحو ثلثمائة وستين طاقا، على عدد أيام السنة، تدخل الشمس كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود، وأن فيه تنورا من نحاس أصفر يحمل الف مصباح، وأن فيه مصحفا بخط عثمان بن عفان

* * *

أكثر الداخل، من ضروب الاصلاح، وعمل على توطيد الامن، فرغب كثير من المشارقة فى الذهاب الى تلك البلاد، وقد شجعهم الداخل على ذلك، بكل الوسائل الممكنة، وافلح فى لم شعث أفراد بنى أمية، فكان لهم اكبر فضل على اللغة العربية والأدب العربي، وانتفعت الأندلس بمواهبهم، التى ظهر اثرها واضحا فى البلاغة الأندلسية.

* * *

(وبعد) فان عبد الرحمن الداخل رجل عبقرى فذ، وهو واحد من قليلين ممن يفخر بهم التاريخ العربي والادب العربي

والآن فلنودعه ـ وفى قلوبنا له أجمل الذكرى ـ ونحن على أمل بلقياه فى فرصة اخرى ـ نرجو أن تمكننا الظروف منها ، فنفى له ببعض حقه علينا فى رسالة نفرده بها (١)

---

(١) اخبار الداخل طويلة ممتعة ، فليرجع اليها من شاء التوسع في المراجع الآتية .

١ الجزء الاول من نفح الطيب من ص ١٥٥ الى ص ١٥٨

٢ » الثانى منه من ص ٧٠١ الى ص ٧٦١

٣ » الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر ، وديوان المبتدا والخبر ، من ص ١٢٠ الى ص ١٢٤

٤ كتاب تاريخ العرب في اسبانيا للمرحوم محمد دياب بك من ص ٦٥ الى ص ١٦٨

٥ كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب ص ٩ و ص ١٠

٦ الجزء الاول من كتاب دوزي المسمى « تاريخ مسلمي اسبانيا »
Histoire des Musulmans d'Espagne.
من ص ٢٩٧ الى ص ٣٨٧

هشام بن الداخل

١٧٢ — ١٨٠ (١)

مات عبد الرحمن الداخل فى سنة ١٧٢ ، فخلفه ابنه هشام ، وكان عادلا رحيما ، وربما يتفقد أحوال رعيته بنفسه ويساعد من يستحق المساعدة من الفقراء ، وقد ذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، فكان يبعث ثقاته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى اليه عن أحدهم حيف ، أوقع به ، وأسقطه ، وانصف منه ، ولم يستعمله بعد ، ففرح الناس بولايته ، ولقبوه بالعادل وبالرضى ، وارتفع شأن الفقهاء فى زمنه

مثال من عدله

اعترض له يوما متظلم من أحد عماله ، فقال له هشام :

(١) ولى الملك وعمره ثلاثون سنة تقريبا ومات بعد سبعة أعوام وتسعة اشهر من خلافته

«» احلف على كل ما ظلمك فيه ، فإن كان ضربك فاضربه ، أو هتك لك سترا ، فاهتك ستره ، أو أخذ لك مالا ، فخذ من ماله مثله ، إلا أن يكون أصاب منك حدا من حدود الله . . . ! »

أثره في الاندلس

وقد وجه همته إلى العناية بقرطبة ، فأكثر من بناء المساجد التي كان يدرس فيها الفقه والعلوم العربية ، وأتم جامع قرطبة الذى شرع الداخل فى بنائه ، ولم تشغله حروبه مع أخويه اللذين شقا عصا الطاعة عليه (١) ولا غزواته الكثيرة وكفاحه الشديد لاستئصال شأفة الثائرين عن مواصلة اصلاحاته العديدة

فضله على العربية

وقد حظر على النصارى أن يتكلموا بغير العربية ، وإن كان قد أباح لهم الكتابة بلسانهم اللاتينى ، وبذلك أصبحت اللغة العربية هى اللغة الغالبة العامة ، وساد اللسان

(١) وقد اخضعهما ، ثم عفا عنهما فيما بعد

العربي في الأندلس

مثال من أدبه

قالوا : ,, وكان هشام إذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكر امور الحرب ومواقف الأبطال ، (١) وكان واسع الاطلاع ، بارع الذوق ، سأله أبوه (الداخل) يوما ، عن قائل هذين البيتين :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا
ومن خاله ، أو من يزيد ، ومن حجر
سماحة ذا ، مع بر ذا ، ووفاء ذا
ونائل ذا ، إذا صحا ، وإذا سكر

فقال له : ,, يا سيدى لامرىء القيس ملك كندة ، وكأنه قاله في الأمير أعزه الله ؛ فضمه اليه استحسانا بما سمع منه (٢) وأمر له باحسان كبير ، وزاد في عينه (٣)

---

(١) كما كان اخوه سليمان كلما حضر مجلسا امتلأ سخفا وهذيانا

(٢) وقد سأل سليمان على انفراد عن نسبة هذين البيتين فقال : « لعلهما لاحد أجلاف العرب ، أمالي شغل غير حفظ اقوال بعض الاعراب ؟ » فأطرق عبدالرحمن وعرف قدر ما بين الاثنين من المزية (٣) ويمكن الرجوع الى أخباره في الجزء الاول من نفح

الحكم الاول[١]

١٨٠ — ٢٠٦

ولما مات هشام سنة ١٨٠ ، وليه ابنه الحكم[٢] بعهد منه اليه ، فاستكثر من المماليك ، وارتبط الخيل ، وباشر الأمور بنفسه ، وكان من المجاهرين بالمعاصى ، وفى أيامه

الطيب من ص ١٥٨ الى ١٦٠ وفى تاريخ ابن خلدون ص ١٢٥ وفي كتاب العرب فى اسبانيا من ص ٩٦ الى ص ١٠٦

(١) ولد سنة ١٥٤ ومات سنة ٢٠٦ ، وولي الحكم وسنه أقل من خمس وعشرين سنة

(٢) وقد نازعه الحكم عماه (سليمان ، وعبدالله اخوا هشام وابنا الداخل) وثارا عليه ، فانتصر عليهما بعد حرب شديدة ، قتل فيها عمه سليمان ، وطئته سنابك الخيل ، وفر عبد الله عمه الثانى ، ثم طلب الصلح بعد ذلك ، فصفح عنه الحكم سنة ١٨٦ قالوا : « لما جيء بجثة عمه سليمان الى ابن اخيه الحكم ، بعد قتله فى تلك الحرب — بكاه وشيع جنازته باجلال واحترام وكان ذلك فى سنة ١٨٤ .

أحدث الفقهاء انشاد أشعار الزهد ، والحض على قيام الليل في الصوامع بالمساجد ، وجعلوا يخاطون بذلك كثيرا من التعريض به ، مثل أن يقولوا : "يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه ! المصر على كبره ! المتهاون بأمر ربه ! أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك [١] " وما نحا هذا النحو

فهاجه ذلك من الفقهاء ، وصب سخطه عليهم ، وكانوا يحرضون العامة عليه ، حتى هاجموا قصره يريدون قتله [٢]

رباطة جأشه

ومما يحسن ذكره هنا ، ما رواه ابن حيان [٣] من أنه لما تسور عليه القصر ، وأحس بالشر ، قال لاخص غلمانه : "اذهب الى فلانة (احدى كرائمه) قل لها تعطيك قارورة الغاليـة " ، فابطأ الغلام وتلكا ، فأعاد ذلك عليه ، فقال :

---

(١) وكان بعضهم يقول فى أذانه « الصلاة يامخمور ! » تعريضا به

(٢) لما انهمك الحكم فى لذاته اجتمع أهل العلم بقرطبة ، مثل يحيى بن يحيى الليثى ، فنادوا به وخلعوه (٣) ملخصة عن كتاب المعجب .

« يا مولاى هذا وقت الغالية ؟ » فقال له : " ويلك يا ابن الـ ...... بم يفرق رأسى من رؤس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ "

ومن حسن حظه أن داهم جنوده العامة من ورائهم ، فشتتوهم ، ثم أمر بتقتيلهم وهدم ديارهم ومساجدهم وحرقها ونفى من بقى منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة اقريطاش من جزائر البحر الرومى ، المقابلة لبر برقة أول بلاد المغرب ، فلم يزالوا هناك سنين ، إلى أن تفرقوا فرجع بعضهم إلى الاندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل آخرون إلى الاسكندرية (١)

---

(١) « كان الحكم في صدر ولايته قد انهمك فى لذاته ، واجتمع أهل العلم بقرطبة مثل يحيى بن يحيى ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فثاروا به ، وامتنع ، فخلعوه وبايعوا محمد بن القاسم من عمومة هشام ، وكان بالربض الغربي من قرطبة محلة متصلة بقصره ، وحاصروه سنة تسعين ومائة ، وقاتلهم ، فغلبهم ، وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفاس من أرض العدوة ، ولحقوا بالاسكندرية » ا . هـ ملخصاً عن ابن خلدون

صفاته وأخلاقه

كان عالما ، فطنا ، فصيحا ، شاعرا ، حازما ، لكنه متكبر قاسى القلب ، سريع الغضب ، قالوا ” وكان أخل بنى أمية بالاندلس واشدهم اقداما ونخوة ، وكان يشبه بأبى جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدة الملك وتوطيد الدولة ، وقمع الاعداء “

ميله الى اللهو

وكان شديد الولع بمجالس الغناء واللهو ، لا يخرج من قصره زمن السلم ، مفوضا شئون المملكة الى ابنه عبد الرحمن وكان يقضى أوقاته فى مجالس الطرب والخمر ، فى حدائقه بين غلمانه ونسائه اللاء كن يحسن الغناء

مثال من شهامته

أما شهامته فلعل أبدع مارأيناه من الامثلة الدالة عليها ، ما حكاه المقرى من أن العباس الشاعر توجه الى الثغر ، فلما نزل بوادى الحجارة ، سمع امرأة تقول : ” واغوثاه بك

يا حكم ! لقد اهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا ،، فسألها عن شأنها ، فقالت : ،، كنت مقبلة من البادية فى رفقة ، فخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت ، وأسرت ، فصنع قصيدته التى فيها :

،، تدارك نساء العالمين بنصرة

فانك أحرى ان تغيث وتنصرا ،،

فلما دخل عليه انشده القصيدة ، ووصف له خوف الثغر ، واستصراخ المرأة باسمه ، فأنف ، ونادى فى الحين بالجهاد ، وغزا تلك الناحية وفتحها ، وقتل كثيرا من أهلها ثم امر باحضار المرأة ، وأمر بضرب رقاب الاسرى بحضرتها وقال للعباس : ،، سلها هل اغاثها الحكم ؟ ،، فأجابته : ،، والله لقد شفى الصدور ، وانكى العدو ، واغاث الملهوف فأغاثه الله ، وأعز نصره ،، قالوا : ،، فارتاح لقولها ، وبدا السرور فى وجهه وقال :

،، ألم تر يا عباس أني اجبتها

على البعد أقتاد الخميس المظفرا !

فأدركت أوطارا وبردت غلة
ونفست مكروبا وأغنيت معسرا»

مثال من اقدامه

ولما هجم سكان الربض الجنوبي من قرطبة على حرسه وزاد هياجهم حتى فرقوا شمله ، وانتهوا الى قصر الامير ، مهدديه بالدمار ، تقلد الحكم سلاحه ، وهم بالنزول ، فألح عليه من معه بالتريث فى امره ، فلم يسمع لهم قولا ، وجمع فرسانه وركب فى مقدمتهم وخرج الى الثائرين فنكصوا على أعقابهم

مثال من شعره

ومما عثرنا به من شعره ، قوله لما قتل أهل الربض ، وهدم ديارهم وحرقها :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا
وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري ، هل بها اليوم ثغرة ؟
أبادرها مستنضي السيف دارعا

تنبئك أنى لم أكن فى قراعهم
بوان، وقد ما كنت بالسيف قارعا

وهل زدت إذ وفيتهم صاع قرضهم
فوفوا منايا قدرت ومصارعا

فهذى بلادى، إنى قد تركتها
مهادا، ولم أترك عليها منازعا

وقوله من قصيدة:

من لى بمقتضبات الروح من بدنى
يغصبنى فى الهوى عزى وسلطانى

أثره في الأندلس

أول من جند الاجناد المرتزقة بالاندلس (كما يقول ابن خلدون) وجمع الاسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشى، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وبلغت عدتهم خمسة آلاف، وكان باشر الامور بنفسه، وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس

الدين فى اسبانيا

❊ تغلب العرب على الاسبانيين كما قدمنا فى المحاضرة الاولى فانتشر الاسلام في اسبانيا وأصبح هو الدين السائد على الاغلبية من السكان وقد شرح لنا الاستاذ نيكلسون الاسلام في اسبانيا والآراء الدينية التى كانت سائدة بين المسلمين، فى القطعة التى سنتلوها عليكم الآن - وشرح لنا العلامة دوزى المسيحية فى اسبانيا، واثر الاسلام في المسيحيين، والآراء التي كانت سائدة بينهم، في قطعة أخرى، ونحن نبدأ بما قاله نيكلسون لاهميته، ثم نختم هذا الفصل بما قاله دوزي فى هذا الصدد، واليكم ما قاله الاول ❊

(١)
الاسلام فى اسبانيا

لم يكن العرب ليكونوا الاقلية الصغيرة من مسلمى اسبانيا، فحسب، بل كانوا زيادة على ذلك يظهرون عدم مبالاتهم بالدين، واحتقارهم لقوانين الاسلام، مما هو منتظر من رجال تشبعوا بتقاليد البدو وكانوا كل أيامهم على اتصال بأموى دمشق الدنيويين، وعلى النقيض من ذلك كانت الحال مع

البرابرة ، ومع مؤمنى اسبانيا المسمون بالصابئين ، أو المولدين، الذين يعيشون كموال فى كنف أشراف العرب، فلقد تمسكت تلك الطوائف بالدين الذي اتبعته استمساكا يتناسب مع مزاجها السوداوي الحار ، الذي كانت تماز به دائما — ومن ثم ساد بين مسلمي اسبانيا ايمان صارم ، يتمثل فى يحي ابن يحيي المتوفى سنة ٨٤٩ م وهو أحد البرابرة ونموذج لهذا الصنف .

يحي بن يحيي

سافر إلى الشرق وسنه وقتئذ ثمان وعشرون سنة، وتلقى العلم على أستاذه مالك بن انس الذي أملى عليه كتابه المعروف بالموطأ، وحدث أن كان يحيي ذات يوم فى إحدى دروس مالك ومعه عدد من الطلاب رفقائه ، فقال قائل: «حضر الفيل فجروا جميعا لرؤيته، ولم يتحرك يحيي من مكانه، فسأله مالك: «لم لم تذهب لتراه وليس فى اسبانيا مثل هذا الحيوان؟» فاجابه يحيي: «لقد تركت بلادى لأراك واتلقى عنك الدروس، ولم آت هنا لرؤية الفيل» فسر مالكا هذا الجواب وقال عنه انه عاقل إسبانيا ، ولما

عاد يحيى الى إسبانيا ، بذل كل ما في وسعه لنشر تعاليم مذهب سيده ـ ولئن كان يحيى هذا قد أصر بسبب تورعه ونسكه على رفض أى منصب من المناصب العامة ـ فقد عظم تأثيره رغم ذلك وذاع صيته إلى حد ان وصلا ـ كما يقول ابن حزم ـ الى أنه كان لا يولى قاض فى الاندلس إلا بعد أن يؤخذ رأي يحيى فيه ، وإلا بعد أن يبين من يفضله على سواه من الناس (١)

---

(١) هذا ماأورده ابن خلكان فى الجزء الرابع صحيفة ٢٩ ، واليكم ماقاله المقرى في ذلك :

« ومن الراحلين من الاندلس الفقيه المحدث ، يحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك رضى الله تعالى عنه ، ويقال ان اصله من برابرة مصمودة ـ وحكى انه لما ارتحل الى مالك ولازمه ، فبينما هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه ، اذ قال قائل « حضر الفيل فخرج اصحاب مالك كلهم ، ولم يخرج يحيى ، فقال مالك : « مالك لم تخرج وليس الفيل فى بلادك ؟ » فقال « انما جئت من الاندلس لانظر اليك واتعلم من هديك وعلمك ، ولم أكن لانظر الى الفيل » فاعجب به مالك وقال : « هذا عاقل الاندلس » ولذلك قيل « ان يحيى هذا عاقل الاندلس ، وعيسى بن دينار فقيهها ، وعبد الملك بن حبيب

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلي الحديث مباشرة في اتخاذه شرعا للبلاد ـ قال عالم من كتاب القرن العاشر «لقد كان الاسبانيون لا يعرفون الا القرآن والموطأ ، فكانوا اذا وجدوا تابعا من أتباع مذهب أبي حنيفة أو الشافعي

عالمها، ويقال ان يحيى راويها ومحدثها، وتوفى يحيى بن يحيي سنة ٢٣٤هـ في رجب وقبره يستسقي به بقرطبه» وقال المقرى :

«وكان مع أمانته ودينه معظما عند الامراء يكنى عندهم عفيفا عن الولايات منزها جلت رتبته عن القضاء، وكان أعلى من من القضاة قدرا عند ولاة الامر بالاندلس ، لزهده في القضاء وامتناعه ـ قال الحافظ بن حزم ـ «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة، فانه لما ولي القضاء ابو يوسف كانت القضاة من قبله، من اقصى المشرق الى أقصى عمل افريقيا، فكان لا يولى الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالاندلس، فان يحيي بن يحيي كان مكينا عند السلطان، مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في اقطار الاندلس الا بمشورته واختياره ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به ـ على ان يحيي لم يقل قضاء قط ، ولا أجاب اليه ـ وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم» ا. هـ

طردوه من اسبانيا - والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمى لمذهب ما ، فانهم كثيرا ما كانوا يخمدون أنفاسه [1].

وقد كان علماء الدين الاسلامى متغطرسين مفرطين فى التعصب الأعمى والطمع فى احراز القوة ، فلم يشاءوا أن يرأسهم أحد فى المملكة - فاما فى زمن هشام (٧٨٨ - ٧٩٦) خلف عبد الرحمن ، فقد رأوا أميرا وفق ما يتمنون ، فقد كانت تقواه وورعه مما لا يدع لهم مجالا للكلام ، وكان على شاكلتهم فاهتم بشئونهم

وأما الحكم (٧٩٦ - ٨٢٢) فقد كان أقل منه مراعاة لهم - نعم انه كرم رجال الدين وبجلهم ولكنه فى الوقت نفسه أراهم أنه لن يسمح لهم بالتدخل فى الشئون السياسية مطلقا فنقموا عليه ، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الشرس واجابوه بالتهديد والاهانات ، واستثاروا جمهور قرطبة ولا سيما الصابئين - وكانوا فى الجزء الجنوبى من المدينة وهو المسمى بالربض - ليقوموا فى وجه ذلك الظالم وجنوده السفهاء - وفى

---

(١) المقدمي صحيفة ١٤٤

ذات يوم من أيام رمضان (١٩٨ هـ) (مايو سنة ٨١٤) وجد الحكم نفسه وقد أقصيت عنه حاشيته وحاصره الغوغاء المتهيجون فى قصره، ولكن شجاعته لم تفارقه، وقد أنجاه من مأزقه الخطر الذى كان فيه، برودته وإنقاذ جيشه المدرب له – وكان نصيب تلك الضاحية الثائرة أن دكها دكا ونفى من سلم من القتل من أهلها إلى بلاد بعيدة، وبلغ عددهم نحو ستين الف نسمة – والحق أن المجرمين الاصليين لم يقعوا تحت طائلة العقاب – ثم كف الحكم عن اضطهاد رجال الدين الحانقين الذين شعروا بانهم يستطيعون أن يصلوا منه باللين إلى ما أخفقوا فى الحصول عليه بالقوة – وإذ كان أغلبهم من العرب أو البرابرة، فقد بثوا الدعوة الشديدة فى الناس لاحترام الحكم، فعادت اليهم قوتهم فى الحال – وفى زمن عبد الرحمن الثانى (٨٢٢ – ٨٥٢) أدار دفة السياسة الملية، يحيى بن يحيى زعيم الثورة بنفسه، وتولى توزيع مناصب القضاء كما أراد . ا . هـ»

*
* *

هذا هو الجزء الذى تناول فيه الاستاذ نيكلسون، الكلام على الاسلام فى اسبانيا، ولما كنا لا نستطيع مناقشته فى كل ما قاله، لكثرة الأغراض الاخرى التى نريد الكلام عنها، فإنا نكتفى بأهم تلك النقط وألزمها الآن وحسبنا أن نلقى بنظرة سريعة على ما قاله:

*
* *

فأما اسلوبه فهو دائما لا يتغير - اسلوب موجز مملوء بالمعانى كما رأيتم، وكما ترون فى كل ما ننقله لكم عنه، وأما النتائج التى نخرج بها من هذه القطعة فاننا نسوقها ممزوجة بآراء غيره من المؤرخين، مع إبداء ملاحظاتنا على أهمها ايجازاً للكلام:

يتبين لنا مما مر ما يلى:

أولا: قوة نفوذ الفقهاء وهيمنتهم التامة على عقول العامة

ثانيا: رغبتهم الشديدة فى الاستئثار بكل شىء والتداخل فى كل امور المملكة تقريبا

ثالثا: شدة تشبع الناس بالعقيدة الدينية وشدة انتصارهم لها، إلى حد أنهم كانوا يحاربون كل من يغضب رجال الدين أو

يتعدى عليهم

رابعا : معرفة الفقهاء كيف يستثمرون ذلك النفوذ الديني العظيم ، وكيف ينتهزون فرصة تشبع الجمهور بالعقيدة الدينية وتفانيه في حمايتها - في انفاذ ما تسوله لهم نفوسهم من الرغبات وفي تحويله إلى حيث شاءت لهم اهواؤهم - وقد شاهدتم كيف أنهم استطاعوا أن يهددوا السلطان نفسه

خامسا : أن مسألة الدين في الاندلس كانت غيرها في الشرق ، بل أنهما كانتا على النقيض ، فبينما كنت ترى المذاهب العديدة ، والنحل المختلفة ، سائدة في المشرق ، إذ تشاهد عكس ذلك تماما في الاندلس ، فلم تكن لترى هنا إلا مذهبا واحدا قد هيمن على كل أهلها تقريبا ، ذلك هو المذهب السني الذي لم يشذ عنه الا بعض أفراد غاية في الندرة ، ممن مالوا الى مذهبي المعتزلة والظاهرية

سادسا : ان تعصب الناس لمذهب مالك ومغالاتهم في الانتصار له ، وصلا الى حد الجنون ، فقد رأيتم أن افتتانهم بهذا المذهب ، وتهوسهم في الولوع بكتاب الموطأ ، وصلا بهم كما يقول ذلك العالم الذي اشهد به نيكلسون - إلى حد

أنهم كانوا لا يعرفون إلا القرآن والموطأ

بل لقد بلغ جنونهم بالموطأ أكثر من ذلك ، فقد حكى لنا بعض المؤرخين ـ أن تعصبهم للموطأ أنساهم النظر فى القرآن والاحاديث

* * *

فاما عن النقط الاربعة الاولى فلا أدل عليها مما سرده نيكلسون عن الحكم هذا وعن حاله مع الفقهاء فقد رأيتم من حكايته جرأة الفقها فى استعمال نفوذهم على العامة باغرائهم اياهم حتى على مهاجمة قصر الملك ومحاولة قتله

وقد كادوا يفعلون لولا حسن حظه ـ ولولا أن أغاثه جنوده الذين داهموهم وشتتوا شملهم

ولعل ما يستلفت النظر فى هذه الحكاية التى سردها عن الحكم ، هو قوله عنه :

،، وقد أنجاه من مأزقه الخطر الذى كان فيه برودته وجيشه المدرب ،، والحق أن الحكم قد بلغ من رزانته وثبات جأشه فى هذا المأزق الحرج ، أن داعب خادمه بتلك الجملة التى سقناها لكم فى محاضرتنا السابقة ـ فقد أمره أن

يأتيه بزجاجة الغالية ليتطيب بها ، وقت أن كان الجمهور يحاصر قصره ويحاول اغتياله ، فلما أبطأ الخادم ، أعاد عليه السؤال ثانية ، فقال له خادمه :

„ يا سيدى أهذا وقت الغالية ؟ „ ، فاجابه :

„ ويلك يا بن الفا ... بم يعرف رأسى من رءوس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ „ ،

ولقد سمعنا حكايات عديدة عن رزانة بعض الناس وعن ثبات جأشهم وبرودتهم ساعة الخطر المميت ، فلم نر فيما علمناه مداعبة أغرب من هذه المداعبة ، ولا رباطة جأش وصلت إلى أكثر من هذا الحد

* * *

شاهدنا شدة ازدياد نفوذ الفقهاء فى ذلك العصر . ولكن لا يفوتنا أن نقول أن هـذا النفوذ العظيم الذى شاهدتموه لم يكن ليقاس بما وصل اليه سلطانهم فى الاندلس وقت انحطاط الدولة وتقهقرها ، فلقد كان نفوذهم يتعاظم كلما ازدادت الدولة فى الانحطاط ، وقد كان ذلك أكبر مساعد للدولة على توالى انحطاطها وتقهقرها

ولقد كانت وطأة التعصب الدين والانتصار للعقيدة تخف حين يقبض على ناصية الدولة ملك قوى كالحكم الثاني مثلا الذى استطاع حماية الفلاسفة ورجال العلم وأحرار المفكرين من عنت العامة والمتنطعين فى الدين — كما سترون ذلك فى حينه — فسترون أنه أطلق حرية التفكير للناس وأن العلوم قد وصلت فى عصره إلى أقصى مدى — وأن الآداب أزهرت وأن حرية الفكر وصلت إلى حد عظيم جداً، وانه أخذ بناصر المفكرين، وان الحرية الدينية لم تصل فى عصر ما إلى ما وصلت إليه فى زمنه. سترون كل ذلك فى حينه، ولكنكم سترون أيضا أن الحرية الدينية رغم ما وصلت اليه فى ذلك الزمن لم تصل حتى فى زمن هذا الملك العظيم — إلى ما وصلت اليه فى زمن المأمون الخليفة العباسى

***

بقى علينا أن نتكلم عن النقطتين الخامسة والسادسة فنقول : ,, إن وصول المذهب المالكى الى حد أن أنساهم القرآن نفسه، وإن وصوله بينهم الى حد أنهم كانوا لا يطيقون رؤية أى مذهب آخر، وإلى حد أنهم كانوا يطردون أى

متمذهب بسواه ، والى حد أنهم حرقوا كتب الغزالى حين وصلت الى الاندلس ـ كما سترون فيما بعد ـ وإلى حد انهم كانوا لا يطيقون النظر فى كتاب فلسفة ،،

نقول : « ان وصول المذهب المالكي الى هذا الحد ، كان بلا شك نذير سوء بما سنسمعه من المدهشات والغرائب التى حصلت وقت انحطاط الدولة ، وسنورد أهمها فى حينه »

* * *

قلنا أن العقيدة الدينية تمكنت من نفوس المسلمين فى اسبانيا ، وإن الفقهاء تعهدوا غرسها واناءها وفق مايشتهون وانهم اولوا النصوص الدينية والآى القرآنية على حسب رغباتهم فماذا نشأ عن ذلك ؟؟ نشأ عن ذلك أن الجمهور فيما بعد ، وقف عقبة كأداء فى سبيل كل من حاول البحث بحرية فكر ، فكان لا يتردد في رجم كل من سمع عنه الاشتغال بعلوم الفلسفة ، متى رأى ما ينكره عليه ـ بل لقد وصل نفوذ الفقهاء وسيطرة العامة إلى حد أن كان الملك إذا حاول استرضاء الرعية تقدم الى واحد من مشهورى الفقهاء وفوض اليه الامر فى حرق كل مايراه فى مكتبته منها ـ يفعل ذلك بعد

أن يكون قد احتاط ووضع أهمها فى مكان لا يهتدى اليه الفقيه

وكان الجمهور يحارب الآراء الحرة من غير أن يفهم شيئا عن حقيقتها، وآية ذلك انه كان يخلط الفلسفة بالتنجيم، فكان يطلق على كل من حاول البحث بحرية فكر، اسم المشتغل بالفلسفة والتنجيم - وكان الفقهاء يحاربون الآراء الحرة والمذاهب الفلسفية لأسباب عديدة، قد يكون أهمها ان اغلبهم كان يخشى على نفوذه إذا انطلقت الافكار من عقالها وتحررت العقول من ربقة التقليد - وإذ كانوا قد استمدوا ذلك النفوذ العظيم من سيطرتهم الدينية، فقد أيقنوا أن سلطانهم الدينى باق على الجمهور ما دام جاهلا، وعرفوا أنه اذا استنار أدرك ما فى أقوالهم من التناقض والاغراق، وفى ذلك القضاء على نفوذهم، وكأنهم كانوا يرون رأي أبي العلاء فى قوله :

الدين متجر ميت، فلذاك لا تلقاه فى الاحياء الا كاسدا

*
* *

وقد يكون الدافع شيئا آخر، هو جمود بعضهم على فكرة واحدة، وعدم قدرته على التمشى مع الآراء الحرة

لقصر مـداركه ـ كما أنه قد يكون ناشئا عن سوء نيـة الـكثيرين منهم وأنانيتهم وجنونهم بالسيطرة ، لـكننا مع ذلك جديرون أن لا ننسى أن بعضهم كان يفعل ذلك عن محض اخلاص، لاعتقاده أن انتشار الفلسفة وحرية الفكر بين الجماهير هو اكبر باعث على السير بهم فى طريق الالحاد والزندقة وزلزلة العقيدة ـ فـكان لذلك يعتقد أن التضييق على الآراء الحرة خير معوان على بقاء الدين ثابت الدعائم، آمنا من تطرق الشك إلى نفوس عامة الناس ـ ومهما يكن من شيء فقد أدي ذلك التضييق الى عكس الغرض الاساسى منه، فقد حبب الفلسفة إلى نفوس الـكثيرين وزادهم هياما بها، كما كانت الحال فى البلاد الشرقية ـ

واذا كان اكثر ملوك الاندلس كانوا يخشون نفوذ الفقهاء، ويتهيبون سطوتهم ويبذلون جهودهم فى نشر العلم، ويشجعون حرية الفكر سرا، لأنهم لم يجرؤوا على مخالفة ارادة الفقهاء، وإذا شكا العلماء والفلاسفة والملوك شدة بأس الفقهاء فى اوائل الدولة، فقد انقلبت الحال فى أواخرها تقريبا، وأصبحنا نرى فى الملوك أنفسهم من هو على رأي الفقهاء المتنطعين، فى التضييق

على الفلاسفة، وستتبينون ذلك من القطعة التالية [١] وهي :

„ وقام بأمره (بأمر الملك) من بعده، ابنه على بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب امير المسلمين، وسمى أصحابه المرابطين، وجري على سنن أبيه فى الجهاد، وكان الى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين، أقرب منه إلى أن يعد فى الملوك والمتغلبين - واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا فى مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد اليه أن لا يقطع أمرا ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير إلا بحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الاول من فتح الاندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك وامور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته - فعظم أمر الفقهاء - كما ذكرنا - وانصرفت وجوه الناس اليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم وفى ذلك يقول أبو جعفر المعروف بالبنى الاندلسى :

---

(١) منقولة عن كتاب المعجب في أخبار المغرب تأليف محيي الدين المراكشي صحيفة ٩٥

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك
وقسمتمو الاموال بابن القاسم

* * *

ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين ويحظى عنده إلا من علم الفروع - أعنى فروع مذهب مالك - فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسوله (صلعم) فلم يكن من مشاهير أهل هذا الزمان من يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وانه بدعة فى الدين، وربما أدى اكثره الى اختلال فى العقيدة، واشباه لهذه الاقوال، حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله - فكان يكتب عنه فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شيء منه، وتوعد

من وجد عنده شيء من كتبه ـ ولما دخلت كتب ابي حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ المغرب ، أمر أمير المسلمين باحراقها ، وتقدم بالوعيد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها [1] „ ا . ﻫ

---

(١) ومما قاله ابن سعيد في ذلك، في كتابه المسمى بالشهب الثاقبة في الانصاف بين المشارقة والمغاربة ؛ ونقله عنه المقري ، قوله :

« وأما قواعد أهل الاندلس في دياناتهم فانها تختلف بحسب الأوقات ، والنظر الى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم اقامة الحدود ، وانكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك ‘ وانكاره ان تهاون فيه اصحاب السلطان ، وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤن بخيله ورجله ، حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في اخبارهم .

وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال ـ اذا لم يعدلوا ـ فكل يوم »

الى أن قال :

« وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم ، فان لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فانه كلما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » اطلقت

***

نكتفى الآن بسرد تلك القطعة فى هذه الالمامة الموجزة، من غير أن نعلق عليها بشىء من عندنا، ففيها وحدها تتبينون صورة واضحة للحال الدينية فى عصر من عصور الدولة

شىء من الآثار الفعلية

العقيدة الدينية

ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين لحضراتكم أثرا

عليه العامة اسم « زنديق » وقيدت عليه انفاسه ، فان زل فى شبهة ؛ رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن ، اذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور ابن ابى عامر لقلوبهم أول نهوضه ؛ وان كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن »

وقال :

« وقراءة القرآن بالسبع ؛ ورواية الحديث عندهم رفيعة ؛ وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم الا مذهب مالك، وخواصهم

يحفظون من سائر المباحث ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم »

فعليا واضحا من آثار تمكن العقيدة فى نفوس أصحابها، متى وجدت محركا قادرا على تصريفها، واستفزاز العاطفة الدينية فيها — فإن القاء نظرة سريعة على قصيدة أبى اسحق الفقيه ورؤية أثرها العظيم الذي أحدثته فى نفوس الجمهور، ليكفى وحده فى اثبات ذلك، وانكم لترون فيها مبلغ التحمس الديني العظيم، وكيف أنها كانت السبب فى القضاء على ما يربو على أربعة آلاف يهودى، ونهب أموالهم، وتدمير منازلهم، وكانت السبب فى حدوث تلك المذبحة الهائلة فى القرن الرابع الهجرى سنة ٣٥٩ م

وقد دعا صاحبها الى قولها أن يوسف ابن نغزالة اليهودى الوزير (١) وشى بأبى اسحق قائل هذه القصيدة فأقصاه

---

(١) قال صاحب نفح الطيب : « ولما استوزر باديس، صاحب غرناطة، اليهودى الشهير بابن نغذلة، وأعضل داؤه المسلمين، قال زاهد ألبيرة وغرناطة أبو اسحق الألبيرى، قصيدته النونية المشهورة التى منها فى اغراء صنهاجة باليهود . . . . . الخ . »

« وهى قصيدة طويلة، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور، فاراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ، الذى نور الحق على كلامه باد! »

السلطان عن بلاده — قالوا — وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الاراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع النفوذ — فوجد ابو اسحق من ذلك دافعا الى انشاء تلك القصيدة البليغة التي سنتلو على حضراتكم أحسن ما فيها والتي دفعه الى قولها غيظه من عدوه ذلك الوزير الخطير ، فملأها تحريضا وأفعمها حججا وبراهين ، أفلح في التأثير بها على العامة وحملهم على انفاذ رغباته — وما زال يتفنن في ضروب الاحتثاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور الساذج حماسا ، وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان نفسه — وليس من شك في أن أبا اسحق بذل كل مواهبه في الضرب على النغمة الدينية واظهار التفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالي فيها اطراد الادلة واتساقها وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة في التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام فخم ، يتطاير حماسا ويتأجج نارا وشعرا صارخا

خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان

وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل اولئك اليهود

(أخصامه) فرض لا مناص من ادائه وواجب حتم لا يصح السكوت عنه - وانهم، إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى، فهم خليقون أن يتداركوه فى الحال، حتى لا تصب عليهم لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه. فيخسف بهم الارض، أو تنقض عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التى تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها، ولا نغمة من نغمات التعصب للعقيدة الدينية، إلا ضرب على وتيرتها - كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل اسهواته إلى حد الركاكة فى بعض الابيات، مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه - وإن شئت فقل، وأروعه، واليكم هذه القصيدة الفريدة فى بابها:

الا قل لصنهاجة اجمعين　　بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مقة مشفق　　يعد النصيحة زلفى ودين
لقد ذل سيدكم ذلة　　تقر بها اعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا　　ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به، وانتخوا　　وتاهوا، وكانوا من الارذلين

ومنها :

فكم مسلم راغب راهب لارذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالالى من القادة الخيرة المتقين (١)
وأنزلهم حيث يستأهلون وردهم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا ولم يستطيلوا على الصالحين

ومنها يخاطب السلطان

أباديس (١) أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليقين

---

(١) في هذا البيت شيء كثير من الركاكة فى قوله (بالألى من القادة الخيرة المتقين) ولكنا نغتفرها لما فى تاليبه من تتمة تلك الصوره الشعرية المنطقية البديعة

(١) الهمزة للاستفهام ، وباديس هو باديس بن حبوس ، صاحب غرناطة ، وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة ،

قال بن خلدون : « ولي (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه ، واستولى على سلطانه اسماعيل بن نغزلة الذمي ، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين واربعمائة ، وقتل معه خلقاً من اليهود ، وتوفي باديس سنة سبع وستين واربعمائة ،

فكيف خفي عنك ما يعبثون ... وفي الارض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا ... وقد بغضوك الى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى ... اذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت الى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين

ومنها:

وإني حللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين

ومنها:

وهم امناكم على سركم ... وكيف يكون امينا خؤون؟
ويأكل غيرهم درهما ... فيقصى ويدنون اذ يأكلون
وقد ناهضوكم الى ربكم ... فما يمنعون وما ينكرون

ومنها:

ورخم قردهم داره ... وأجرى اليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فانا الى ربنا راجعون (١)

---

(١) يرى القاريء في هذا البيت اسلوبه الشيطاني في استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجع على ما أصاب الدين من ضعف أدى بذلك اليهودي الى السخرية منه

ولو قلت فى ماله إنه كمالك كنت من الصادقين
فبادر الى ذبحه قربة وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عراهم وخذ مالهم فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة بل الغدر فى تركهم يعبثون
فقد نكثوا عندنا عهدهم فكيف نلام على الناكثين
وكيف تكون لنا همة ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الاذلة من بينهم كأنا أسأنا وهم محسنون
فلا ترض فينا بافعالهم فأنت رهين بما يفعلون
وراقب الهك فى حزبه فحزب الاله هم المفلحون

***

تلك هي القصيدة البليغة التى استفزت الناس الى الفتك باليهود وأخذ البرىء منهم بذنب المسىء، وكان من نتائجها تلك المذبحة الكبيرة التى أشرنا اليها والتى لا يؤخذ بجريرتها الا ابو اسحاق ناظمها الذى عرف كيف ينتقم لنفسه عن طريق التشنيع المدبن والتظاهر بمظهر المتفانى فى الدفاع عنه!

المسيحية في اسبانيا (١)

« بعد الفتح الاسلامي اعتنق كثير من المسيحيين دين الفاتحين ـ حفزتهم لهذا المنافع من جهة واقتناعهم بأن الدين الاسلامي هو الدين الحق من جهة أخرى . فقد جددوا فلسفتهم فى نظرية الصراع ـ يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق، ويقولون للكهنة : « لو كانت المسيحية حقا فلماذا أسلم الله بلادنا وهى مسيحية لشيعة نبي كاذب ـ وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته وقصصتم علينا

(١) معربة عن كتاب دوزى المسمى
Recherches sur les Musulmans & Litt. d'Espagne
ومن هذه القطعة تتبينون حال المسيحيين في اسبانيا بعد الفتح الاسبانى ، وكيف تسرب الايمان الى الكثيرين ومنهم الذين أسماهم نيكلسون بالصابئين أو المولدين وكان لهم اكبر أثر فى الدين الاسلامي وعاشوا كموال فى كنف أشراف العرب ووصل تمسكهم بالاسلام الى حد عظيم جدا ـ ولقد اضطررنا الى الاكتفاء بهذه الكلمة دون تعليق على بعض ما جاء فيها من النقط الهامة ـ رغبتنا فى الايجاز الشديد الذى يدعونا اليه ضيق الوقت .

مجموعة من تلك المعجزات التى وقعت غيرة على هذا الدين أيام المظالم الآرية — لم لا تبعث هذه المعجزات مرة أخرى ؟»
وقد كانت هذه الاعتراضات فى العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكهنة انفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك لم خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين ! ! — فلما تقادم زمن الفتح حلت هذه الاعتراضات بأن المتأخرين من ملوك القوط بل كهنتهم وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع التى قرعتهم لم تكن الا عقابا عادلا من الله — وقد كان اعتبار النكبات قصاصا عادلا، من فلسفة الاقدمين على العموم واليهودية على الخصوص — ولقد تتجلى فى أمثال سليمان سعادة الابرار وشقاوة الفجار فى صور مختلفة — ولما توالت النكبات على يعقوب لم يكن أصحابه لينزعوا عن اعتباره مجرما لولا أن برهن على طهارته وفضيلته — وكانت القرون الوسطى تطبق على التعاسة نفس هذه النظرية فكان انتصار المسلمين على الخصوص آية الغضب الالهى كما كانت انتصارات المسيحيين فى رأى المسلمين — وكانت تردد هذه الجملة في ايطاليا كذلك وهى « اذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله

يريد عقابنا على خطايانا » وكذلك كان يقال فى اسبانيا ـ وفى سنة ٨١٢ اذاع الفونس الثاني منشوراً باملاء الكهنة قال فيه « أيها الاله ـ ان القوط اغاظوك بكبريائهم فكانوا أهلا لأن تمزقهم السيوف العربية » وفى سنة ٩٢٤ قال سنكودى نفار فى منشوره بمناسبة انشاء معبد البلد

« لقد كانت اسبانيا تحت سلطان المسيحيين فكانت حصونها وقراها مكتظة بالكنائس . وبذلك كان الدين المسيحى سائدا فى كل مكان . ولكن اسلافنا تتابعت خطاياهم وخرجوا على وصايا الاله ، فلاجل أن يعاقبهم على ماقدمت أيديهم ويرجعهم الى الصراط السوى رماهم بهذا الشعب البربرى »

وقال سبستيان بدوره ،، وانما هلك الجيش القرطى لان الملوك والكهنة تركوا شريعة الله ،، وقال كاهن باشيلوس ،، عاقب الله أسلافنا فى هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون هنالك حاجة الى عقابهم فى الحياة الاخرى ،، كذلك نرى المؤرخين المتمدينين من أهل الشمال اتهموا وزيتا ومعاصريه بانهم كانوا غلاظا ملحدين فاهان الكهنوت برمود الثانى

ومعاصريه بسبب ذلك — وفي رواية كاهن بشيليوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنه، أن برمود كان عاقلا رحيما عادلا وانه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر ولكنه كان سيء الحظ فقد حدث في عهده وقت ان كان يشغل عرش ليون — ان وجه المنصور الى المسيحية أشد الضربات التي أصابتها منذ الهجوم العربي فلم ينج شيء من سيوف المسلمين ولم تكن لترى حينذاك الا مدائن مخربة وادية خاوية وكنائس مهدمة — بل لقد وصلت الحال الى أن سقط سبستبول وهيكل سان جاز رأسا على عقب — وهنا رجع السؤال لماذا تغلب المسلمون على المسيحية؛ وأجاب الكهنة على سابق عادتهم ذلك عقاب على خطايانا والمنصور هو مطرقة الغضب الالهي (١) على أنهم كانوا جديرين أن

---

(١) Almanzor a été le fleau de la colère celeste

« المنصور مطرقة الغضب الالهي » هكذا كانوا يسمونه، ولهم الحق في ذلك، فلقد بلغ به حبه الشديد للغزو، أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد، فحدثت له نية في ذلك، فلا يرجع الى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره الى الجهاد، فتتبعه عساكره وتلحق به أولا فأولا، فلا يصل الى أوائل بلاد

يبينوا لنا أين كانت تلك الجرائم التى استوجبت هـذه العقوبة الهائلة ؟؟ وكيف تم ذلك رغم أن الايمان بالخلود كان فى ذلك الزمن أكثر منه فى أى زمن آخر ؟؟ ولكن لا غرابة فى ذلك فقـد آلى كتاب القرن الثانى عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب (١) فمؤلف التاريخ الكشتالى على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى بلا روية بالكهنة الذين ترأسوا كنيـسة رمبو ستيل فى القرن

الروم ، الا وقد لحقه كل من أراده من العساكر ، غزا فى أيام مملكته نيفا وخمسين غزوة ، وفتح فتوحا كثيرة ، ووصل الى معاقل امتنعت على من كان قبله ، وملأ الاندلس غنائم وسبيا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم ، وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى ، وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، حتى نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساو اكثر من عشرين دينارا

وكان فى اكثر زمانه لا يخل بأن يغزو غزوتين فى السنة » اهـ ملخصا عن كتاب المعجب

(١) وهو اتهام كل من اصابته نكبة بالعصيان ليـهل عليهم فعليل ذلك

العاشر وأظهرهم بمظهر الفسقة المجرمين قساة القلوب (١) وعنى فيلاخ أفيديو بشخص برمود ـ ألا ترى كيف أنه يبدأ كلامه بنشر صحيفة طويلة من سيئاته ومخازيه فاذا انتهى منها وصل الى هـذه النتيجة فقال : « وانما بسبب جرائم برمود وجرائم شعبه ان المنصور الخ » وهكذا برروا عمل الألوهية التي سمحت للاسلام أن يكتسح المسيحية

*
* *

ولما كانت الأقاصيص الشفوية قـد لحقها كثير من التحريف فى زمن سبستيان ولم يكن قد اغترف الا من ذلك المنبع فقد وجب أن تقابل كل معلوماته بالحذر المشروع » ا.هـ

---

(١) فعل هذا ليتوصل به الى اثبات أن سقوطهم كان عقابا عادلا من الله

عبد الرحمن الثانى [1]

٢٠٦ - ٢٣٨

ولما مات الحكم بن هشام ، خلفه ابنه عبد الرحمن الاوسط ، وله انتصارات كثيرة على المسيحيين ، وقد ارتفع ذكره عند بني العباس ، وكان يحتجب عن العامة [2]

اثره في الحضارة الاندلسية

كانت أيامه أيام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال عنده ، فاتخذ القصور والمتنزهات ، وجاب اليها الماء من الجبال ، وأقام الجسور ، وبنيت فى أيامه الجوامع ، وزاد فى جامع قرطبة رواقين ، ومات قبل أن يستتمه ، فاتمه من بعده ابنه محمد [3]

---

(١) ولد سنة ١٧٦ وحكم احدى وثلاثين سنة

(٢) وقد وصل اجلاله وحبه ، ليحيي بن يحيي الليثى الفقيه زعيم الثورة الدينية التى قامت ضد الحكم ، الى حد عظيم ، وقد سبق الكلام على هذه الثورة ، فليرجع اليها في ص (٨١)

(٣) ملخصة عن المقرى

اثره في الحركة الفكرية

كان عبد الرحمن الثانى عالما ، فاشتد ميله الى العلماء ، وكان أديبا فرفع مكانة الادباء ، وكان عالما بالفلسفة والشريعة فبجل الفقهاء ، ومن ثم ازدحم بلاطه بالعلماء والشعراء ورجال الادب والفقهاء ، ووصلت الحركة الفكرية فى الاندلس الى مدى بعيد

ولعه بالنساء

وكان شديد الولع بالنساء ، فاكتظ قصره بأحسن الجوارى وأجملهن ، وقد خلف منهن مائة وخمسين من الذكور ، وخمسين من الاناث

وحكايته مع جاريته طروب أشهر من أن نتصدى لها وخلاصتها أنه أغضبها ، فعاقبته بالهجر والصدود ، وحاول أن يترضاها بكل الوسائل ، فأخفق ، فأرسل اليها من خاصة خصيانه من يرغمها على الحضور ، فأغلقت باب حجرتها دونهم ، فاستأذنوه فى كسر الباب عليها ، فلم يطاوعه قلبه ،

ولما اعيته الحيل ، لجأ الى ترضيتها ، فسد عليها الباب من خارجه ببدر الدراهم ، وتضرع اليها أن تراجعه ، على أن لها جميع تلك النقود ، فخرجت اليه مكبة على رجله تقبلها ، وأحرزت المال كله

أوصافه

كان أسمر اللون ، طويل القامة ، أقنى الأنف ، أكحل العين ، عظيم اللحية

أمثلة من شعره

لم نعثر من شعره ، بما يمكننا من الحكم على شاعريته وربما كان فى البيتين التاليين ، دليل على اصالة حكمته وبعد نظره ، وصدق شاعريته ، والبيتان :

ولقد تعارض أوجه لاوامر
فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ ، إن يحو النهى بتجارب
فشباب رأى القوم عند شبابها

أما أبياته الأخرى ، فتنخط كثيرا ، عن هذه المنزلة ،

فمن ذلك قوله في جاريته طروب ، التي مر ذكرها :

اذا ما بدت لي شمس النهار طالعـة ذكرتني طروبا

أنا ابن الهشامين من غالب أشب حروبا وأطفي حروبا

وليس في البيت الاول معنى يذكر ، ولا بأس بجمال تلك الصورة التي يحويها البيت الثاني

* * *

وقوله يتشوق اليها ، وقد طالت غيبته في غزوة من غزواته :

الافي بوجهي سموم الهجير

اذا كاد منه الحصى أن يذوبا

تدارك بي الله دين الهدى

فأحييته ، وأمت [redacted]

وسرت الى الشرك في جحفل

ملأت الحزون به والسهوبا

ولا بأس بنظم هذه الأبيات الثلاثة في القوة(١)

---

(١) ومن أحسن ما عثرنا به من نثره ، ما كان يكتبه في بعض توقيعاته : « من لم يعرف وجه طلبه ، فالحرمان أولى به »

فضله على فن الغناء

ولى عبد الرحمن الثانى ، الحكم فى سنة ٢٠٦ ، كما أسلفنا ، فقدم عليه فى تلك السنة الأولى من حكمه زرياب (١) المغنى المشهور ، من العراق ، فركب للقائه ، وبالغ فى اكرامه ، فكان بذلك أكبر نصير لهذا الفن الجليل فى بلاد الأندلس التى عرفت كيف تنتفع بمواهب هذا الفنان العبقرى (٢) ، وسترون فى حينه — الأثر الجليل الذى أحدثه رقى الغناء فى نظام الشعر العربي فى الأندلس (٣)

---

(١) قال فى المقتبس : « زرياب لقب غلب عليه ببلده ، من اجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله ، شبه بطائر أسود غرد عندهم ، وكان شاعرا مطبوعا »

(٢) من شاء أن يتتبع حركة الغناء فى الاندلس ، ويتعرف أثر زرياب الموسيقى فيها ، فليرجع الي الجزء الثانى من كتاب العلامة دوزي « تاريخ مسلمى اسبانيا »

ص ٨٩ (L'histoire des Musu'mans d'Espagne)

(٣) سيرى القارىء أن الغناء كان السبب الاول فى اختراع الموشحات في الاندلس

زرياب الموسيقي (١)

„ كان لموسيقي فارسي في بلاط عبد الرحمن الثاني (٨٢٢-٨٥٢) الحظوة الاولى - ذلك الموسيقي هو زرياب (١)

---

(١) معربة عن كتاب نيكلسون

(٢) نشأ ببغداد ، وكان تلميذا لاسحق الموصلي ، فتلقف من أغانيه استراقا ، وهدي من فهم الصناعة ، وصدق العقل مع طيب الصوت ، وصورة الطبع الى ما فاق به اسحق ، واسحق لا يشعر بما فتح عليه ، الى أن جري للرشيد مع اسحق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغن غريب ، مجيـد للصنعة ، لم يشتهر مكانه اليه ، فذكر له تلميذه هذا ، وقال : « انه مولى لكم ، وسمعت له نزعات حسنة ، ونغمات رائقة ، ملتاطة بالنفس ، اذا أنا وقفته على ما استغرب منها ، وهو من اختراعي واستنباط فكري ، وأحدس أن يكون له شأن » فقال الرشيد : « هـذا طلبتي ، فأحضرنيه ، لعل حاجتي عنده » فاحضره فلما كلمه الرشيد ، أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء ، فقـال : « أحسن ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر الا لك ، فان أذنت غنيتك ، ما لم تسمعه اذن قبلك »

فأمر باحضار عود استاذه اسحق ، فلما أدنى اليه ، وقف عن تناوله ، وقال : « لي عود ، نحته بيدي ، وارهفته بأحكامي ولا أرتضي غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين في استدعائه »

فأمر بادخاله ، فلما تأمله الرشيد ؛ وكان شبيها بالعود الذي دفعه ، قال له : « ما منعك أن تستعمل عود استاذك » فقال : « ان كان مولاى يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان كان يرغب فى غنائى ، فلابد لى من عودى » فقال له : « ما أراهما الا واحدا » فقال « صدقت يامولاى ؛ ولا يؤدي النظر غير ذلك لكن عودى وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه — فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه ، وأوتاره من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها انائة ورخاوة ، وبمها ومثلثها (وتران من أوتار العود) اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها في الترنم والصفا والجهارة والحدة ، أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ، ما ليس لغيرها » فاستبرع الرشيد وصفه ، وأمره بالغناء ، فجلس ، ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره

هارون ، راح اليك الناس وابتكروا

رأى فيه منافسا خطرا فاغراه بمغادرة بغداد وتلمس جده في اسبانيا حيث تلقاه عبد الرحمن الثانى مرحبا به ، وأعطاه

فأتم النوبة ، وطار الرشيد طربا ، وقال لاسحق : « والله لولا أني أعلم من صدقك لى على كتمانه اياك لما عنده ، وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة ، لتركك اعلامى بشأنه ، فخذه اليك ، واعتن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فان لى فيه نظرا » فسقط فى يد اسحق ، وهاج به من داء الحسد ، ما غلب صبره ، فخلا بزرياب وقال : « يا على ! ان الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، لا حيلة فى حسمها ، وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فاذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ، وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما لا اصاحبك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعى لذمة تربيتك لما قدمت شيئا على ان أذهب نفسك ، يكون فى ذلك ما كان ، فتخير فى ثنتين ، لا بد لك منهما ؛ اما أن تذهب فى الارض العريضة ، لا أسمع بخبرك ، بعد أن تعطيني على ذلك الايمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، واما أن تقيم علي كرهي ورغمى مستهدفا الى ، فخذ الآن حذرك مني

قصرا فخما وأجرى عليه راتبا كراتب الامراء ، ومنحه كل ما يتصوره الانسان من مراتب الشرف ، فأحرز شهرة

فلست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالك ، باذلا في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك »

رحلته الى الاندلس

فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ، فأعانه اسحق على ذلك سريعاً ، ومضى يبغى الاندلس ، واستراح قلب اسحق منه ، وتذكره الرشيد بعد فراغه ، فأمر اسحق بحضوره ، فقـال : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون ، يزعم أن الجن تكلمه وتطارحـه ما يزهى به من غنائه ، فلا يرى فى الدنيا من يعدله ؛ وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به ، والتهاون بصناعته ، فرحل مغاضبا ، ذاهبا على وجهه ، مستخفيا عنى ، وقد صنع الله فى ذلك لامير المؤمنين ، فانه كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه ! »

فسكن الرشيد الى قول اسحق ، وقال : « على ما كان به ؛ فقد فاتنا منه سرور كثير ! »

* * *

أم زرياب الحـكم ، وكتب اليه يستأذنه في الوصول اليه

واسعة وصلت الى حد أنه كان يضع الاسلوب الأمثل لكل ما يختص بالذوق والعادات ، ويحدد الزى ، ويصدق على الطهى ، ويعين من الملابس ما يمكن ارتداؤه فى فصول

ويعلمه بمكانه من صناعة الغناء ، ففرح الحكم بكتابه ، وأظهر له رغبته الشديدة فى ذلك ، فسار اليه زرياب بعياله وولده فلما بلغ الجزيرة الخضراء ، وافاه نعى الحكم فهم بالرجوع الى العدوة ، فثناه عن ذلك منصور اليهودى المغنى ، رسول الحكم الذى كان يرافقه ، ورغبه فى قصد عبد الرحمن الثانى خلف الحكم

* * *

احتفاء عبد الرحمن الثانى به

فكتب الى عبد الرحمن ، فأحسن الرد عليه ، ورحب به ، وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ، ويوصلوه الى قرطبة وأمر خصيا من أكابر خصيانه أن يتلقاه ، حتى وصل الى البلد ، فنزل فى دار حسنة ، واستدعاه بعد ثلاثة أيام ، وبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما هو الا أن سمعه ، فاستهوله واطرح كل غناء سواه ، وشغف به وقدمه على كل المغنيين

* * *

وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتبا ، وأن يجرى على بنيه الاربعة عشرين دينارا لكل واحد منهم ، وأن يجرى على

السنة ، وكان يتخذه ملوك اسبانيـا نموذجا لهم ، وما زال يعظم سلطانه حتى صار يستشفع به ، وعرف ذلك عنه جميع سكان المملـكة حتى آخر أيام حكم المسلمين (١)

زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأقطعه كثيراً من بساتين قرطبة

فضل زرياب على الموسيقى

ومما أدخاله فى الموسيقي العربيـة من التحسينات ـ عدا الانغام الـكثيرة التى أدخلها فيها ـ انه زاد فى أوتار عوده وترا خامساً ، اختراعا منه ، وهو الذي اخترع بالاندلس مضراب العود من قوادم النسر بدلا من الخشب فأبدع فى ذلك ، للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه ، فلا غرو اذا غطى فضله على كل من اشتهر بفن الغناء فى الاندلس من قبله .

سعة حفظه

وقد حفظ نحو عشرة آلاف مقطوعة من الاغانى بألحانها ، فدل بذلك على سعة اطلاعه ، ووفور ذكائه . ا . ه ملخصا عن المقري بتصرف

(١) والى القاري ءماقاله المقرى فى ذلك أيضاً ، ليتبين منه مهارة زرياب وأثره الشديد في الحضارة الاندلسية بعد أن عرف فضله

* * *

ولم يكن زرياب إلا واحداً من كثيرين من النوابغ ورجال العلم الذين وفدوا على اسبانيا من الشرق فان قائمة

من قبل على الغناء الاندلسى

« وكان زرياب قد جمع الى خصاله هذه ، الاشتراك في كثير من ضروب الظرف ، وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملوكية ، ما لم يجده أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذه ملوك أهل الاندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته فصار الى آخر أيام أهل الاندلس منسوبا اليه ومعلوما به

فمن ذلك أنه دخل الى الاندلس ، وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل شعره مفروقا وسط الجبين ، غاما للصدغين والحاجبين ، فلما عاين ذوو التحصيل ، تحديقه هو وولده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى أصداغهم — حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجوارى — هوت اليه أفئدتهم واستحسنوه

ومما سنه لهم ، استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج ، لطرد ريح الصنان من مغابنهم ، ولا شيء يقوم مقامه ، وكانت ملوك الاندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل

العلماء الذين رحلوا فى طلب العلم الى أفريقيا ومصر والى المدن المقدسة فى بلاد العرب والى حواضر سوريا العظيمة

ذلك من ذوات القبض والبرد، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضره فدلهم على تصعيدها بالملح، وتبييض لونه، فلما جربوه أحمدوه جدا

* * *

ومما اخترعه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة الى زرياب

* * *

ومما أخذه عنه الناس بالأندلس، تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة، وايثاره فرش أنطاع الادم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية، اذ الوضر يزول فيها عن الادم بأقل مسحة .

ولبسه كل صنف من الثياب فى زمانه الذي يليق به، فانه رأي أن يكون ابتداء الناس لباس البياض وخلعهم الملون من يوم مهرجان أهل البلد في ست بقين من شهر يونيه، فيلبسونه الى اول شهر اكتوبر ثلاثة أشهر متوالية، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة، ورأى أن يلبسوا فى الفصل الذي بين الحر والبرد — المسمى عندهم بالربيع — من مصبغهم جباب الخز، والملاحم،

والعراق . والى خراسان وترانسكسنيا . بل والى بلاد الصين أحيانا ـ كانت تحوى كل نابغى الادباء ورجال البلاغة العربية الذين أنجبتهم اسبانيا الاسلامية كما يرى ذلك من يتصفح الفصل الخامس من كتاب المقرى ـ ولهذا كانت حركة مبادلة الآراء في دؤوب ونشاط ، فلم يستأثر أحد من رجال الشرق والغرب بشيء خاص ، وعرف الناس كل شيء حتى أن مشاهير شعراء الاندلس كابن هانىء وابن زيدون كان ينعتهما النقاد الشرقيون المعجبون بهما بمتنبي الغرب وبحتريه [(١)] ، ا . ه .

* * *

والمحرر ، والدراريع التى لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر ، التي ينتقلون اليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ، ثياب العامة ، وكذا رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف ، المحاشي المروية ، والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد في الغدوات ، الى أن يقوى البرد فينتقلون الى أثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا اليه ـ صنوف الفراء

(١) يجد القارىء في ختام هذا الفصل كلمة في هذا الصدد

لعل أول ما يتبادر الى أذهاننا ويسترعي انتباهنا وحيرتنا من هذه القطعة، هو تقدير الاندلسيين لزرياب، الذى وصلوا فيه الى حد التقديس - رحب به عبد الرحمن الثانى، وأغدق عليه نعما لا تحصى، واجرى عليه راتبا كراتب الأمراء وزاد افتتانه به وثقته بسلامة ذوقه الى حد أن حكمه فى كل ما يختص بالأذواق والعادات وتعيين ما يصح ارتداؤه فى فصول السنة

هذا الاحتفاء النادر الذى لقيه هذا المغنى الالمعي - وذلك التقدير الذى تغالوا فيه الى هـذا الحد، يدلاننا على شيئين غاية في الاهمية:

أولهما شغف الاندلسيين بفن الغناء وعنايتهم بأمره عناية ربما رجحت عناية الغربيين اليوم بهذا الفن وأهله (١)

وثانيهما مغالاة الاندلسيين فى الافتتان بكل شرقى

---

(١) سنستنتج بهذا الاستنتاج في موضعه حين نتكلم عن الموشحات الاندلسية ونشأتها وأثر الغناء في الشعر العربي - وكيف أنه كان سببا فى تحطيم اكبر قيد من القيود التي وقفت بالشعر في مكانه وأخرته عصورا طويلة

والهيام بكل ما يمت بعلاقة الى المشرق ولم يقتصر ذلك على طبقة خاصة من الاندلسيين بل كان عاما فى كل الطبقات من الملك الى أحقر أفراد شعبه وقد أظهر لكم حضرة الدكتور ضيف احتفاءهم الشديد بأبى على القالى بما يعزز رأينا فى ذلك، فأما الاستنتاج الاول فلنا عودة اليه فى موضعه، وأما النقطة الثانية فانا نوجزها فى ما يلى :

اثر الشرق فى الاندلس

ان تقديس الاندلسيين لكل شرقى، مما يكاد يلمسه كل مطلع على تاريخهم فى كثير من المواضع، فلقد تغالوا فى اجلال الشرق حتى كانوا ينظرون اليه نظرة الابن الى أبيه ولعلكم تلمحون ذلك فيما ذكره نيكلسون من تلقيبهم ابن هاني وابن زيدون بمتنبي الغرب وبحتريه (١) فقد كان أقصى ما يطمح اليه الشاعر الاندلسى هو أن يلقب باسم شاعر

---

(١) لنا عودة قريبة الى هذه التسمية ومناقشتها، لنتبين مقدار صحتها أو خطلها، فليس من العدل أن نمر بها من غير تعليق عليها، وسنتناول ذلك في ختام هذا الفصل

شرقى مشهور ، أو أن يقال أنه شبيه بمعاصره الشرقى فلان ، كما كان اقصى ما يطمح اليه النحوى ، هو أن يشبه بنابغ من نحاة الشرقيين كسيبويه ، وكذلك كان أقصى ما يطمح اليه الملك هو أن يتشبه بملوك بنى العباس ويقلدهم فى كل شىء

*

* *

قال العباس بن الاحنف على لسان هارون الرشيد تلك الأبيات الشهيرة المنسوبة الى ثانيهما ، وهى :

ملك الثلاث الآنسات عنانى

وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البرية كلها

وأطيعهن وهن فى عصيانى ؟

ما ذاك الا أن سلطان الهوى

وبه قوين أعز من سلطانى

فماذا فعل سليمان الظافر أحد ملوك الأندلس ؟ قلده فيها فقال :

عجبا يهاب الليث حد سنانى

وأهاب لحظ فواتر الأجفان

الى أن قال : ,, وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ،،

يا عجبا ! : كأن ابهة الملك وفخاره لا يتمان الا بتقليد أحد ملوك بني العباس حتى فى أتفه الاشياء – فاذا عشق أحدهم ثلاث أوانس ، وتملكن قلبه ، وغلبنه على أمره ، تحتم على السلطان الأندلسي أن يعشق مثل هذا القدر لا اكثر ولا أقل – ووجب أن يتملكن قلبه ويغلبنه على أمره كذلك ، لتشبه حاله حال السلطان العباسي !!

ووجب أيضا أن يكون التشبيب بهن من البحر الكامل والقافية النونية ، لئلا يحسب العشق مزيفا والنسيب سمجا غير مقبول !!

قد نكون أسرفنا فى هذا الاستنتاج وقد نكون توهمنا غير الحقيقة ، وقد يكون السلطان الاندلسى أراد مجرد الفكاهة واللهو فحسب ، بتقليد السلطان العباسى !! قد يكون هذا وقد لا يكون ، ولكن لا بأس علينا فى ذلك فكلا الامرين محتمل ، ولكن ما نريد اثباته أمر تاريخى واقع سواء أصح ذلك الاستدلال ام لم يصح ، فان هناك كثيرا من القرائن تعززه – انظروا الى قول أحد شعراء

الاندلس وقد ضجر لعدم التفات قومه اليه

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولكن عيبي ان مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ما ضاع من ذكرى النهب

وقول آخر :

أما ترى احمد فى مجده لا يلحق
اطلعه الغرب فارنا مثله يامشرق (١)

وقول بعضهم فى الترحيب بالمخزومى ، الهجاء الشهير ، حين قدم غرناطه :

يا ثانيا للمعرى فى حسن نظم ونثر
وفرط ظرف ونبل وغوص فكر وفهم ٢

---

(١) هذا يدلكم على أنهم كانوا يعتبرون الشرق مخرج النوابغ والعلماء

(٢) المخزومي هذا هو ابو بكر المخزومى ، وهو شاعر أعمى شديد القحة والشرة ، خبيث الطبع ، ثلاب للاعراض ، ولست ادرى أى وجه من اوجه الشبه بين هذا الوقح وبين شاعر المعرة ؟ فليس بينهما من شبه الا تلك لآفة المحتومة وهي فقدان البصر ؛

ثم انظروا الى قول أحد شعراء الاندلس الذى اظهر فيه تبرمه بتقليد العباسيين فى كل شيء حتى فى اسمائهم :

أما فيما عدا ذلك ، فبينهما من اوجه الشبه والاتصال ما بين النقيض والنقيض ، وما الفرق بين المعرى وبين هذا المخزومى الا كالفرق بين الخير والشر أو النور والظلمة

ولكنها عادة الفها الاندلسيون فى التشبيه بمشهورى المشارقة كما اوضحناه !

ولا بأس من انتهاز هذه المناسبة لنحيل من شاء التوثق من قحة هذا الشاعر وخبث نفسه ، الى حكايتـه مع نزهون بنت القلاعي في ص ١١٨ من الجزء الاول من كتاب نفح الطيب ، ففى هذه الحكاية مثل صحيح يعطى فكرة عامة عن كثير من مجالس الادب فى بلاد الأندلس ، وأخلاق فئة كبيرة من ادبائهم وأديباتهم في ذلك العصر ، وربما دل على شدة الشبه بين ما كان يحدث في تلك المجالس الاندلسية من المجون ، وبين مجالس أبى نواس وأضرابه في الشرق ، وربما ذكرنا هذا الهجاء الوقح الذى نطالعه في تلك الحكاية ، بمهاجاة بشار وحماد عجرد ، وملاحاة جرير ، وما اكتظ به ذلك الزمن من الفحش وهجر القول مما لا تساعدنا آداب هذا العصر على اثباته ، على اننا نكتفى بتذكرة القارىء ببائية جرير التى فيها بيته المشهور :

مما يزهدنى فى أرض اندلس

القاب معتضد فيها ومعتمد

القاب مملكة فى غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

* * *

نجتزىء بهذا القدر فى اثبات تأثر الغرب بالشرق، على ان فيما يراه المطلع على تاريخ الاندلس الكفاية فى تعزيز ما ذهبنا اليه ؟

اذا غضبت عليك بنو تميم   رأيت الناس كلهم غضابا

لننبه الى قوله :

لعمرك ما تقول بنو نمير   اذا ما الأ.. فى... ايك غابا ؟

* * *

وقد أسلفنا القول أن الاندلسيين تأدبوا بأدب الشرق، واتخذوا شعراء المشارقة قدوة واماما، فقلدوهم في كل شيء تقريبا، ولن تؤدى هذه العوامل الى غير هذه النتيجة

ابن هانئ والمتنبى

بقى بعد ذلك، أن نناقش المؤرخين فى تشبيه ابن هانىء بالمتنبى وابن زيدون بالبحترى، وقد وعدنا فى اول هذا الفصل بالعودة الى ذلك فى ختامه (١) والآن نبر بوعدنا

* * *

ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكننا من الحكم عليه حكما صحيحا، فانا نترك مناقشة القسم الثاني من هذه التسمية. ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الاولى وهى تشبيه ابن هانى بالمتنبى لاستطاعتنا الكلام فيها ـ وسنسلك فى الموازنة بينهما طريقة قد لا نرضى عنها كثيرا. وقد لا نتمالك أنفسنا من الشعور بنقصها الشديد، ولكن ضيق الوقت وحاجتنا الشديدة الى الايجاز يضطراننا الى سلوكها

---

(١) كان من حق هذه المقارنة أن نؤخرها قليلا، الى عصر الناصر أو عصر الحكم الثانى، فقد وجد ابن هانىء في زمنهما كما تراه فى ترجمته، ولكنا أردنا التعجيل بهذه الكلمة لنتمم بها مناقشة اراء الاستاذ نيكلسون في النبذة التى ترجمناها له

رغم اعتقادنا بأن سرد عدة أبيات ـ كائنة ما كانت ـ لشاعر ما، لا يكفى للوصول الى حكم صحيح عنه . وربما اتسع لنا الوقت فكتبنا فى هذا الموضوع رسالة خاصة نسلك فيها طرق المقارنة الصحيحة ، على أن كلمتنا لن تخلو من بضع فوائد، أهمها تحريك الافكار لمناقشة هذا الموضوع الخطير، ونبدأ الموازنة بينهما الآن بسرد بضعة أبيات من أرقى شعرهما المختار، لنتبين منها شاعريتهما ثم نسرد آراء مؤرخى الآداب فيهما ونناقشها لعلنا نصل الى نتيجة مرضية :

مختار شعر ابن هانىء(١)

قال فى الحكم

إنا - وفى آمال أنفسنا

طول ، وفى أعمارنا قصر -

---

(١) ابن هانى الأندلسى

ولد سنة ٣٢٦ - توفي سنة ٣٦٣ هـ

اسمه محمد ، كنيته أبو القاسم ، اسم ابيه هانىء الازدى أحد الشعراء فى بعض قرى المهدية ، وقد رحل الى الاندلس ، حيث خلف محمدا هذا ، بمدينة إشبيليه ، ومن تاريخه ، نتبين أنه كان معاصرا للمتنبي في الشرق ، ولعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الثانى في الاندلس ، أى أنه كان في أزهى عصر من عصور الادب العربى فى الشرق والغرب

نشأ بأشبيليه واكثر من حفظ اشعار العرب وتعرف اخبارهم وعمل الشعر ومهر فيه

تقرب من صاحب أشبيليه ، ولما كان ابن هانىء ميالا الى الفلسفة شغوفا بدراستها ، وكان الاندلسيون يتهمون كل من اشتغل بها ، بالالحاد والكفر (ارجع الى ص ٩٢ و٩٣) كرهه الناس ،

لنرى باعيننا مصارعنا
لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا
أجفاننا والغائب الفكر
واذا تدبرنا جوارحنا
فأ كلهن العين والنظر

واساءوا الظن بصاحب أشبيليه بسببه ؛ واتهموه بمذهبه ، فاشار عليه بالرحيل الى مكان آخر ، ريثما ينسى امره ، فاستصوب كلامه وأم بلاد المغرب ، وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، ومدح جوهر القائد ، واستقدمه المعز حين انتهى خبره ، اليه وبالغ فى الانعام عليه ، فاكثر من اشعاره في مدحه ، ولما انتقل المعز الى مصر ، تجهز ابن هانىء للحاق به ، فلما وصل برقة مات فيها ، وقد اختلفت الروايات فى سبب موته ، واشهرها ، أن شخصا من أهلها أضافه ، فخرج ذات ليلة من داره وهو سكران ، فنام في الطريق حيث وجدوه فى اليوم التالى ميتا ، وقد حزن المعز حين بلغه ذلك وقال جملته المشهورة : « هذا رجل كنا نود أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يتح لنا ذلك »

ومما يستدعي النظر أن ابن هانىء مات سنة ٣٦٣ أي في السنة التى ولد فيها ابو العلاء المعرى

لو كان للالباب ممتحن
ما عدمنها السمع والبصر
أي الحياة ألذ عيشتها
من بعد علمي انني بشر
خرست لعمر الله ألسننا
لما تكلم فوقنا القدر

***

هل ينفعني عز ذي يمن
وحجولها ، واليمن والغرر
ومقالي المحمود شارده
ولساني الصمصامة الذكر
ها انها كأس بشعت بها
لا ملجأ منها ولا وزر
أفتترك الأيام تفعل ما
شاءت ولا نسطو فننتصر ؟
هلا بأيدينا أسنتنا
في حين نقذفها فتشتجر ؟

فانبذ وشيجا وارم ذا شطب
لا البيض نافعة ولا السمر
دنيـا تجمعنا ، وأنفسنا
شذر على أحكامها مذر
لو لم تربنا ناب حادثها
انا نراها كيف تأتمر
ما الدهر الا ما نحاذره
هفـواته وهناته الـكبر

وفيها يقول :

أقسمت لا يبقى صباح غد
متبلج وأحم معتكر
تفنى النجوم الزهر طالعة
والنيران الشمس والقمر
ولئن تبدت من مطالعها
منظومـة فلسوف تنتثر
ولئن سرى الفلك المدار بها
فلسوف يسلمها وتنفطر

وفيها يقول :

واذا صحبت العيش أوله
صفوا ، فهن بعده الكدر
واذا انتهيت الى مدى أمل
دركا ، فيوم واحد عمر
ولخير عيش أنت لابسه
عيش جنى ثمراته الكبر
ولكل حلبة سابق أمد
ولكل نهلة وارد صدر
وجدود تعمير المعمر أن
يسمو صعودا ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة
وتنال منه الهام والقصر
والمرء كالظل المديد ضحى
والفىء يحسره فينحسر

ثم يقول فى ختامها :

غرض ترامى فى الخطوب ، فذا
قوس ، وذا سهم ، وذا وتر

فجزعت ، حتى ليس بى جزع
وحذرت ، حتى ليس بى حذر (١)

* * *

وقال في النسيب :

امسحوا عن ناظرى كحل السهادِ
وانفضوا عن مضجعى شوك القتادِ

أو خذوا منى ما أعطيتم
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد

هل تجيرون محبا من هوى ؟
أو تفكون أسيرا من صفاد ؟

أسلوّا عنكم من هجركم
قلما يسلو عن الماء الصوادى ؛

(١) هذا ما اخترناه من قصيدته الفلسفية التى قالها فى رثاء والدة يحيى وجعفر بن على ، ومن رأينا أنها قد سمت الى اعلى قمة وصلت اليها بلاغة ابن هانىء ، ويمكن القول بأنها أروع قصيدة رأيناها له

انما كانت خطوب قيضت
فعدتنا عنكم احدى العواد
فعلي الايام من بعدكم
ما على الظاماء من لبس الحداد
لا مزار منكم يدنو سوى
أن ارى أعلام هضب أو نجاد

ومنها:

قل تنويل خيال منكم
يطبي بين جفون وسهاد

ومنها:

لم يزدنا القرب الا هجرة
فرضينا بالتنائي والبعاد
واذا شاء زمان رابنا
برقيب أو حسود أو معاد

وقال يصف أكول:

يا ليت شعرى ، إذا أومى الى فمه
أحلقه لهوات أم ميادين ؟

كأنها — وخبيث الزاد يضرمها —
جهنم ، قذفت فيها الشياطين

تبارك الله ما أمضى أسنته
كأنما كل فلك منه طاحون !

كأن بيت سلاح فيه مختزن
مما أعدته للرسل الفراعين !

أين الاسنة أم أين الصوارم أم
أين الخناجر أم أين السكاكين

كأنما الحمل المشوى فى يده
ذو النون فى الماء لما عضه النون

لف الجداء بأيديها وأرجلها
كأنما افترستهن السراحين

وغادر البط من مثنى وواحدة
كأنما اختطفتهن الشواهين

يخفض الرز من قرن الى قدم
وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه
نار ، وفى كل عضو منه كانون !
كأنما فى الحشا من حمل معدته
قرنفل وجواريش وكمون
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا
وجاذبتنا أعنتها البراذين
نصحتكم ، خذوا من شدقة وزرا
أولا ، فأنتم سويق فيه مطحون[1]

---

(١) هذه قصيدة جميلة تتمثل منها صورة مضحكة لشره ذلك الاكول ، ولكنها — على جمالها — لم تسم الى شعر الفحول أمثال المتنبي وابن الرومي ، والى القارىء ماقاله الثاني في هذا المعنى ، ليتبين منه بنفسه ، الفرق بين شعر الفحول وغيرهم :

وأما يد البصري في كل صفحة
فأقلع من سيل واغرف من رفش
يغير على مال الوزير وأهله
فينفش في رغفانهم أيما نفش

وقوله فى وصف الخيل :

وصواهل، لا الهضب يوم مغارها
هضب، ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها، لا أنها
علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها
مرت بجانحتيه وهى ظنون (١)

على أنه ينعي الى كل صاحب
ضروساً له تأتى على الثور والكبش
يخبر عنها أن فيها تثلما
وذلكم أدهى، وأوكد للجرش
ألم تعلموا أن الرحى، عند نقرها
وتجريشها، تأتى على الصلب والهش؟

(١) انظر الى المغالاة القبيحة في هذا البيت، ثم قسه الى بيت أبي العلاء المعرى فى وصف سرعة الخيل من غير أن يلجأ الى المحال، في قوله من قصيدة أنشأها فى صباه :

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

وقال يمدح المعز

تقول بنو العباس « هل فتحت مصر »

فقل لبني العباس : ,, قد قضي الامر ،،

وقد جاوز الاسكندرية جوهر

تطالعه البشرى ، ويقدمه النصر (١)

ومنها وهو نهاية الملق وصغار النفس :

امام رأيت الدين مرتبطا به

فطاعته فوز ، وعصيانه خسر

أرى مدحه كالمدح لله إنه

قنوت وتسبيح يحط به الوزر

الى أن يقول :

رأى أن سيسمى مالك الارض كلها

فلما رآه قال : ,, ذا الصمد الوتر ،،

---

(١) في هذين البيتين تهب علينا نفحة من نفحات المتنبي رغم ما نشعر به من السخط لما في الابيات الاخرى من المغالاة والملق

وفيها يقول :

وما ضر مصرا حين ألقت قيادها

إليك ، امد النيل أم غاله جزر

* * *

غدا جوهر فيها غمامة رحمة

يقى جانبيها كل جانبة تعرو

كأنى به قد سار فى القوم سيرة

تود لها بغداد لو أنها مصر

ستحسدها فيها المشارق ، انه

سواء اذا ما حل فى الارض والقطر

الى أن يقول مخاطبا المعز :

وأوصيته فيهم برفقك ، مردفا

بجودك ، معقوداً به عهدك البر

وصاة كما أوصى بها الله رسله

وليس باذن أنت مسمعها وقر

ويقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة
أطاع لنا فى ظلها الامن والوفر
لكم اسوة فينا قديما ، فلم يكن
بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

* * *

حتى يقول :

فيا ملكا - هدى الملائك هديه -
ولكن نجر الانبياء له نجر
ويا رازقا من كفه نشأ الحيا
والا فمن أسرارها نبع البحر
الا انما الايام أيامك التى
لك الشطر من نعمائها ، ولنا الشطر
لك المجد منها ، يا لك الخير والعلى
وتبقى لنا منها الحلوبة والدر

ويقول فى ختامها وهو نهاية الاحالة :

فلو سمع التثويب من كان رمة
رفاتا، ولبى الصوت من ضمه قبر
لناديت من قد فوّز «واحى بدولة
تقام لها الموتى ويرتجع العمر ! »

ونختار له فى المدح قوله أيضا :

أبى العوالى السمهرية والسيو
ف المشرفية والعديد الاكثر
من منكم الملك المطاع كأنه
تحت السوابغ تبع فى حمير
القائد الخيل العتاق شوازيا
خزرا الى لحظ السنان الأخزر
شعث النواصى حشرة آذانها
قب الأباطل، دانيات الأنسر
تنبو سنابكهن عن عفر الثرى
فيطأن فى خد العزيز الاصعر

وفيها يقول :

قوم يبيت على الحشايا غيرهم
ومبيتهم فوق الجياد الضمر

وتظل تسبح فى الدماء قبابهم
فكأنهن سفائن في أبحر

خياضهم من كل مهجة خالع
وخيامهم من كل لبدة قسور

حى من الاعراب الا أنهم
يردون ماء الامن غير مكدر

وأصدق ما نصف به هذه القصيدة أنها تقليد محكم لشعر المتنبي !

مختار شعر المتنبي (١)

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

---

(١) ابو الطيب المتنبي

٣٠٣ سنة ٣٥٤ هـ

اسمه احمد بن الحسين، لقبه المتنبي، كنيته أبو الطيب، ولادته بالكوفة وكان ابوه سقاء

نشأ ابو الطيب محبا للعلم والادب قوى الحافظة، فلما ترعرع حمله أبوه الشام يتنقل به من باديتها الى حاضرتها، واستمر فى تلقي العلم فأتقن اللغة وتعمق فى معرفة حوشيها. وحفظ الكثير من شعر الجاهلية وغيرهم.

نشأ بعيد الهمة، كبير النفس فلم يقنع بالشهرة الادبية بل طمحت نفسه الى السيادة بالفتح! فدعا الى بيعته قوما من مريديه من ابناء سنه فبايعوه، ولما كاد يتم له ذلك، وصل خبره الى والى البلدة فقبض عليه وحبسه، ثم أطلقه الوالى بعد حين.

فيقال انه خرج الى بني كلب، وأقام فيهم وادعي أنه علوي، ثم ادعى النبوة — وفي هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته في غير هذا الكتاب!

قالوا: « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ، أمير حمص

وتولوا بغصة كلهم منه • وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه • ولكن تكدر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الد • هر حتى أعانه من أعانا

من قبل الاخشيدية ، فقاتله وأسر من كان معه من بنى كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن دهراً طويلاً حتى كاد يتلف ، فسئل فى أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ، وأطلقه . فكان المتنبي كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حاول التنصل من تبعته »

***

ثم اشتهر بالشعر ، فتسابق الملوك الى استدنائه بالجوائز ومنهم سيف الدولة بن حمدان فقدم عليه المتنبى سنة ٣٣٧ هـ ، ومدحه بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبى وابن خالويه النحوى المشهور قول فى مجلس سيف الدولة فوثب الى المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .

فغضب المتنبى . ورحل الي مصر . وتقرب من عدو بنى حمدان كافور الاخشيدى سنة ٣٤٦ هـ وامتدحه انتقاما من سيف الدولة فأكرمه كافور ، ثم ارتاب فيه لما رأي من كبره وتعاليه ، وقال:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أحقر من أن نتعادى فيه وان نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات، ولا يلاقى الهوانا
واذا لم يكن من الموت بد فن العجز أن تموت جبانا
كل مالم يكن من الصعب فى الأ نفس سهل فيه اذا هو كانا

*
* *

ومن أبدع أبياته الفلسفية قوله:

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء اليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام!

« ياقوم من ادعي النبوة بعد محمد (صلعم) ألا يدعى الملك مع كافور ؟ »

فأم أبو الطيب بغداد، ثم فارس، حيث امتدح عضد الدولة ابن بويه الديلمى، فأجزل عطاءه، وعاد من فارس قاصدا بغداد حيث قتل في طريقه

وقوله من قصيدة رائعة :

ولقد رأيت الحادثات ، فلا أرى

يققا يميت ، ولا سوادا يعصم (١)

وفيها يقول :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله

واخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

والناس قد نبذوا الحفاظ ، فطاق

ينسى الذى يولى ، وعاف يندم

ويقول :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ويقول :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجد

ذا عفة ، فلعلة لا يظلم !

---

(١) معنى البيت « لا أرى الشيب سببا للموت ولا الشباب واقيا منه »

ويقول :

ومن البلية عذل من لا يرعوى

عن جهله ، وخطاب من لا يفهم

حتى يقول :

ومن العداوة ما ينالك نفعه

ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

* * *

وقال فى الرثاء :

الحزن يقلق ، والتجمل يردع

والدمع بينهما عصى طيع

يتنازعان دموع عين مسهد

هذا يجىء بها وهذا يرجع

وفى هذه القصيدة الرائعة يقول :

إنى لاجبن عن فراق أحبتى

وتحس نفسى بالحمام فأشجع

ويزيدنى غضب الاعادى قسوة

ويلم بى عتب الصديق فأجزع

تصفو الحياة لجاهل أو غافل
عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه
ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذى الهرمان من بنيانه
ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها
حينا، ويدركها الفناء فتتبع!

الى أن يقول:

ولقد أراك وما تلم ملمة
الا نفاها عنك قلب أصمع

ويبدع فيقول:

يا من يبدل كل يوم حلة
أنَّى رضيت بحلة لا تنزع؟
ما زلت تخلعها على من شاءها
حتى لبست اليوم ما لا تخلع!

ما زلت تدفع كل أمر فادح
حتى أتى الأمر الذى لا يدفع
فظللت تنظر، لا رماحك شرع
فيما عراك، ولا سيوفك قطع!

ثم يقول :
وصلت اليك يد، سواء عندها
الباز الاشهب، والغراب الأبقع

* * *

ومن أروع مانختاره له فى الغزل قوله :
لعينك ما يلقي الفؤاد وما لقى
وللحب مالم يبق منى وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى
مجال لدمع المقلة المترقرق
وأحلى الهوى ماشك في الوصل ربه
وفى الهجر، فهو الدهر يرجو ويتقي؟

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم
بعثن بكل القتل من كل مشفق
عشية يعدونا عن النظر البكا
وعن لذة التوديع خوف التفرق

وقوله فى قصيدة أخرى :

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل
عياء، به مات المحبون من قبل
فمن شاء فلينظر الى، فمنظرى
نذير الى من ظن أن الهوى سهل
وما هي الا لحظة بعد لحظة
اذا نزلت فى قلبه رحل العقل
جري حبها مجري دمى في مفاصلى
فأصبح لى عن كل شغل بها شغل

*
* *

ومن أصدق ما تتمثل به نفسه الطموحة الى الحكم والسيطرة قوله من قصيدة له :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر
فالآن اقحم حتى لات مقتحم

لاتركن وجوه الخيل عابسة
والحرب اقوم من ساق على قدم

بكل منصلت مازال منتظرى
حتى أدات له من دولة الخدم

*
* *

وقوله من قصيدة أخرى

تمرست بالآفات حتى تركتها
تقول: «أمات الموت أم ذعر الذعر؟»

وأقدمت اقدام الأتى كأن لى
سوى مهجتى ؛ أو كان لى عندها وتر

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبن المجد زقاوقينه
فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتضرب أعناق الملوك، وأن ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا، كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

وفيها يقول

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر، فالذي فعل الفقر

* * *

وقوله من قصيدة طويلة :

يا ساقيي ! أخمر في كؤوسكما
أم في كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة انا ؟ مالي لا تغيرني
هذي المدام، ولا هذي الاغاريد
ماذا لقيت من الدنيا، واعجبها
أني بما أنا بك منه محسود

وقوله من قصيدة أخري:

مما أضر بأهل العشق انهم
هووا، وما عرفوا الدنيا، وما فطنوا

تفني عيونهم دمعا وأنفسهم
فى إثر كل قبيح وجهه حسن

وقوله من قصيدة أخرى

انى أصاحب حلمى . وهو بى كرم
ولا أصاحب حلمى ، وهو بى جبن

*
* *

ومما نختاره له قوله يمدح سيف الدولة من قصيدة

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها
وتصغر فى عين العظيم العظائم

وفى هذه القصيدة الرائعة يقول

فلله وقت ذوب الغش ناره
فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

الى أن يقول

وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

ثم يقول

ضممت جناحيهم على ضمة
تموت الخوافى تحتها والقوادم

وقوله من قصيدة أخرى

لا يدرك المجد الا سيد فطن
لما يشق على السادات فعال

لا وارث جهلت يمناه ما وهبت
ولا كسوب بغير السيف سآل

الى أن يقول :

كأن نفسك لا ترضاك صاحبها
إلا وأنت على المفضال مفضال

ولا تمدك صوانا لمهجتها
الا وأنت لها فى الروع بذال

لو لا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

*
* *

نكتفى بهذا القدر من شعر المتنبي وابن هانىء الاندلسي ونحيل من شاء التوسع الى ديوانيهما ، ونؤكد لحضراتكم أننا قد تحرينا نهاية الدقة فى الاختيار ، محاولين جهدنا أن يخرج القارىء بعد قراءة هذه النخبة من شعرهما ، بصورة قريبة الوضوح ان لم نقل تامة — يتمثل منها شاعريتهما ويرى بنفسه فى أى سماء من البلاغة يحلق كل منهما

ولا مندوحة لنا عن القول بأن عثورنا على تلك الابيات الرائعة التى اخترناها من شعر ابن هانىء قد كبدنا كثيرا من العناء ، لقلة الجيد من كلامه ، على حين لم يكلفنا اختيار هذه الصفوة المتفردة بأسلوبها العالى ومعانيها الساحرة ، من شعر المتنبى ، أكثر من القاء نظرة مطمئنة فى ديوانه الخالد

* * *

ولقد اخترنا لكم أمثلة من أروع شعر ابن هانىء، وأريناكم أعلى جو حلقت فيه بلاغته، فهل ترون فى كل ما ذكرناه، شعرا يمت بنسب الى قول المتنبي فى نونيته الساحرة :

وكأنا لم يرض فينا بريب الـ دهر، حتى أعانه من أعانا!
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا!

أم هل ترون فى كل شعر ابن هانىء، ما يمت بنسب ما الى هذه النونية الساحرة؛ كلا! وشتان بينهما [1]

---

(١) من الحق ألا نكتم أعجابنا الشديد برائية ابن هانيء التي ذكرناها له فى ص (٢١٩) لاسيما قوله فيها

انا وفى آمال انفسنا طول، وفي اعمارنا قصر
انرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الالباب تعتبر

وقوله :

أى الحياة ألذ عيشتها من بعد علمى أننى بشر

وقوله، وربما كان أروع ماقرأناه له :

خرست لعمر الله انفسنا لما تكلم فوقها القدر!

فقد كاد يسمو بهذه القصيدة الى مصاف الفحول، حتى لاحسسنا في أكثر ابياتها طائفة من أسمي خوالج الحياة؛

ان نظرة يلقيها الانسان على ديوانيهما لتبين له الفرق العظيم بين قصيدة طويلة تقرؤها لابن هانيء فلا يعجبك منها الا بضعة أبيات قلائل واخرى للمتنبي لا تقل عنها طولا قد لا يشذ عن اعجابك منها أكثر من هذا القدر

***

ومن يدري ؟ فربما لو طال عمر ابن هانيء واستمر في هذه الطريق الفلسفية الحقة ، التي انتهجها في رائيته ، لكان لنا فيه رأي آخر ، ولعددناه في مرتبة الفحول ، التي لم يسم اليها من شعراء العربية الا افراد غاية في الندرة

***

ولنذكر مثلا ، يتبين منه القارىء — رغم ايجازه — ماقد نعنيه بقولنا « مرتبة الفحول » التي سما اليها المتنبي وأضرابه القليلون كالمعري والبحتري وغيرهما ، والتي قصر ابن هانيء عن شأوها .

***

قلنا ان ابن هانيء قد أبدع في قوله :

خرست لعمر الله انفسنا   لما تكلم فوقها القدر

ولا نزال نكرر أنه وفق الى اخراج صورة حية ، تتمثل فيها جلال هذا المعنى وروعته . ولكنه لم يعد طور الاجادة بعد

ولو أن انسانا قرأ نونية المتنبي التي اخترناها له وا كتفى بقراءتها وحدها، وقرأ شعر ابن هانىء كله، ثم حكم بتفوق الاول على الثاني لعذرناه ـ وان لم نقبل حكمه، لانفرادها بميزات لا تكاد تجتمع في سواها

ولكن ماذا يقول من يقدم على المقارنة بينهما وليست هذه القصيدة الساحرة الا مثلا واحدا من الامثلة العليا الكثيرة التي أخرجها المتنبي للوجود!

فاذا شئت أن ترى ما بعد مرتبة الاجادة، فانظر الى هذا المعنى في صورته الخالدة حين تناوله شاعر المعرة، فطبعه بطابع الخلود الذي امتاز به اكثر شعره، لتتبين الفرق واضحا بين مرتبة شاعر مجيد كابن هانىء الاندلسي، وشاعر فحل كأبي العلاء مثلا، فربما كدنا نلمس الفرق بين شعر الاجادة وشعر الخلود في قول المعري:

تقفون. والفلك المسخر دائب   وتحركون فتضحك الاقدار

ولعل أوجز وأصدق ما نقوله في هذا البيت انه بلغ حد الاعجاز ! !

لنعد اذن الى الأسباب التى ذكرها مؤرخو الآداب[1] ليبرروا بها تلقيبهم ابن هانىء بالمتنبي علنا نعثر فيها على شيء يثلج صدورنا ويقنعنا بصواب ما ذهبوا اليه أو أرجحيته على الاقل

قال مؤرخو الآداب إن اوجه الشبه بين الرجلين كثيرة ولكن أهمها ما يلى :

(١) نشأ كلاهما فى الطبقات الوضيعة وترقى بمواهبه وشعره الى درجات الخاصة

(٢) اغرق كلاهما فى المدح الى حد مذموم

---

(١) فقد اتفق المؤرخون كلهم تقريبا على أن ابن هانيء خير شعراء الاندلس ، بلا منازع ، كما اتفقوا كذلك على تلقيبه بمتنبي الغرب ، وتغالى بعض الناس في تقديره فمدوه شاعرا فذا وقالوا :

ان تكن فارساً فكن كعلى
أو تكن شاعراً ، فكن كابن هانى
كل من يدعى بما ليس فيه
كذبته شواهد الامتحان !

ولم نعثر الى الآن على رأى مؤرخ يناقض ذلك ؛ غير ما نذكره فى ختام هذا الفصل من رأى المعرى فيه

(٣) جالس كلاهما الملوك ونادم الامراء

(٤) أجاد كلاهما وصف ما رأى اجادة نادرة

(٥) كانا معاصرين

(٦) مات كلاهما غيلة بيد عدو نذل دنيء وهو في كمال العمر وتناهي القوة

وهي اوجه شبه كما ترونها مضحكة ، ولعل أغراها بالضحك الوجهان الاخيران ، ولست أدري لم لم يسترسلوا في اضافة أوجه شبه اخرى اليها ليزيدونا اقتناعا بصحة ما ذهبوا اليه ، كأن يقولوا مثلا : وكلاهما رجل ، ولكل منهما عينان ، ثم يعددوا من أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينهما اشتراكهما في الطول والقصر أو عدم اشتراكهما الخ.

ليس في هذه الاوجه الا وجه واحد يمكن اعتباره وجيها وهو الرابع الذى يقولون فيه إن كليهما قد أجاد وصف ما رأى اجادة نادرة ، وهو قول يحتاج الى تحديد ودقة ، ولا ينبغي أن يلقى على عواهنه ، على أننا نستطيع أن نقول إنه بالاختصار غير صحيح في مجموعه ، نعم أجاد ابن

هانىء وصف بعض الاشياء التى رآها ، ولكن مختاره وروائعه – رغم قلتها بالقياس الى حسنات المتنبى – لا تسمو بحال ما الى الذروة التى حلقت فيها بلاغة المتنبى وعبقريته الجبارة

وانما اجاد ابن هانىء وصف بعض الاشياء كما يجيد أى شاعر آخر من أشباهه الكثيرين جدا – لا كما يجيد شاعر قد لا تعرف العربية له مثيلا الا اثنين فقط هما المعرى وابن الرومى

***

لنعد ثانية الى تلك الاسباب ونتمم النظر فيها علنا نجد فيها سببا آخر نبرر به هذا الخلط ! ربما كان ذلك هو السبب الاول الذى ذكروا فيه أن كليهما نشأ فى الطبقات الوضيعة وترقى بمواهبه وشعره الى درجات الخاصة ، وهو كلام لا يخلو من مغالطة أيضا ، نعم ارتقى كلاهما بمواهبه وشعره وكم من أناس ارتقوا كذلك من درجات العامة الى مجالسة الملوك والامراء بمواهبهم وشعرهم فهل يكون فى ذلك مبرر لمقارنتهم بالمتنبى ؟

لقد يتساءل الانسان كيف وصلت شهرة ابن هانىء الى حد أن قارنه الناس بالمتنبي وفضلوه على كل شعراء الاندلس ان لم يكن جديرا بذلك؟ والجواب على هذه النقطة من أيسر الامور ، فإن الشهرة وحدها ليست معياراً للكفاءة ، وليست جدارة الانسان هى دائما الوسيلة الى شهرته وبعد صيته ، بل هناك طرق شتى وظروف عديدة تعينه على ذلك ، وعلى قدر استعداد الانسان لها ومعرفته بانتهاز تلك الفرص وتهافته على الشهرة يكون نصيبه منها

وأنتم أفلا ترون من شهرة بعض معاصرينا من الشعراء وغيرهم وبلوغها حدا كبيراً جداً مع تقصيرهم التام ، ما يقرب لكم فهم السبب الذى قد يكون داعيا لشهرة ابن هانىء وما قيمة الشهرة ؟ أليست أبواقها قاصرة على الجماهير ؟ وهل للجماهير رأى فى البلاغة ؟ (١)

---

(١) ليس للشهرة قيمة حقيقية اذا لم يكن صاحبها جديراً بها ، ولا نحب يضيق بنا المقام اذا شئنا الافاضة في الاستدلال على ذلك بالامثلة العديدة المتجددة ، اني كثيراً ما نشاهد ما في روحاتنا وغدواتنا من تحايل بعض الناس على الوصول الى الشهرة بكل الوسائل الدنيئة

*
* *

انما نظلم ابن هانيء ظلما فاحشا ونغبنه أشد الغبن اذا

وكثيراً ماينجحون ، ولكنه في الغالب نجاح مؤقت ، لا يلبث ان يفضح غشه .

ومعاذ الله أن نعني ابن هانيء بشيء مما نقول ؛ وحاشانا أن نقصد الي ذلك ، فان لابن هانيء في نظرنا – رغم تقصيره الشديد عن بلوغ شأو المتنبي مكانة ادبية كبيرة ، تدعونا الى احترامه ، بل والى الاعجاب به أحياناً .

*
* *

ولكننا لا نرى مع ذلك بأساً من انتهاز هذه المناسبة ، لاظهار قيمة الشهرة في نفسها حتى لا يتخذها بعض الناس وسيلة من وسائل الاقناع ، والى القاريء مثلا من امثلة عديدة من أساليب الشهرة – نسوقه كدليل صادق لا يدع مجالا للشك ، ولا يقبل التأويل – في دحض قيمتها :

أساليب الشهرة

للشهرة اساليب كثيرة تتفاوت خسة ونبلا تبعا لطبائع اصحابها ، ولا بأس من ذكر واحد من ذلك النفر ، وهو رجل مارس صناعة الخط مدة طويلة من الزمن ، فلم يصل فيها الى مكانة تؤهله الى أن

قارناه بالمتنبي – بل أني لأجرؤ فأقول، انني بعد مطالعة كل ماقالاه تقريبا لم أتردد فى الحكم بأن مقارنة الاول بالثاني

يعد حتى في مصاف الخطاطين العاديين ولما اعيته الحيل ولم يجد له من سبيل الى الشهرة عن طريق الجدارة لما يتطلبه ذلك من سلامة الطبع والعمل المتواصل – سلك طرقا اخري للوصول الى غرضه ويمكن تلخيص ما نعرفه منها فيما يلي :

اولا : التعلق باذيال كل من يمت بعلاقة الى الصحف

ثانيا : كتابة أسماء الصحف والمجلات وحفرها على نفقتـه الخاصة واهدائها الى اصحابها

ثالثا : الاسراع بالتعرف بكل اديب نابه وتملقه اياه طمعاً في أن يكتب له ذات يوم اسم كتاب يؤلفه أو صحيفة يصدرها

رابعا : اهداء كل من يعرف عنه القدرة على نظم الكلام – ا كاشيها باسمه، أو هدية اخرى تتناسب مع ما يتوقعه من وراء ذلك من الفائدة . ولقد أهدى بعضهم طررا ذهبية ثمنا مقدما لمدائحهم فيه

خامسا : التأنق فى ملبسه والعناية بجمل هندامه مشابها لزى جماعة الأرتست

سادسا : كتابة الاعلانات عن نفسه بنفسـه في الصحف والتحايل على نشرها بكل وسيلة، وترديد كلمتي الاستاذ والنابغة

جريمة كبرى، ارتكبها معاصروه أولا، ثم قلدهم في ارتكابها بعض المؤرخين وتابعهم عليها البعض الآخر بلا روية — كما

فيها حتى يحفظها الجمهور

سابعا: اتخاذ أسماء زعماء السياسة وأساطين الاجتماع وسيلة الى الرفعة من شأنه وان شوه خطه الرديء جمال كلماتهم البديعة

ثامناً: ترديد كلمتي (الفن) و (الجمال) أمام اغرار العامة ونشر الدعاوي العريضة عن نفسه في كل مجلس، والحط من شأن أساطين فن الخط الذين يترفعون عن أن يكونوا اساتذة له، وكثرة تنقصه اياهم وتبجحه بأنهم عيال على (الفن) وانهم لا يفهمون (الجمال) (والهائمين في سوح الجمال) وعشاق (جمال الفن) (وفن الجمال)!!

ولقد توصل بهذه الصفاقة — والحمد لله — الى أمنيته — ونجحت وسائله الحقيرة رغم أنف الحق والفن — واشتهر اسمه حينا ما، بين العامة — وان احتقرته الخاصة — وساعده على ذلك ما يلي:

اولا: كثرة المجاملات التي يتبعها أغلب أرباب الصحف وعدم عنايتهم كثيراً بنشر الحقائق

ثانيا: انشغال الناس بالحالة السياسية وعدم التفات الكثيرين منهم لمسائل الفنون الجميلة

ثالثا: ترفع احقر الخطاطين عن أن يتنازل يوما من الايام

اعتقد أن الحـكم على ابن هانىء بأنه خير شعراء الاندلس بلا منازع جريمة اخرى لا تعدلها الا جريمة المقارنة بينهما

الى انتقاده ـ لان رجال هـذه الطائفـة كلهم لا يعترفون بوجوده أصلا

***

وها هو الآن يجرب دعاواه في الأدب ونحن نبشره بالنجاح اذا سلك أشباه هذه الوسائل . ولا بأس من سرد فـكاهة بسيطة حدثني بها صديق لى عنه . وهى وحدها كافية في اظهار جنون هذا المسكين بالشهرة وتهالـكه عليها ـ وخلاصتها أنه تقدم ذات يوم الى وظيفة خبير فى احدي المحاكم مع ثلاثة ممن يحترفون الخط فاظهرت نتيجة الامتحان أنه الرابع (أي الاخـير) ـ فماذا فعل ؟ ؟ لم يكتف بهذه الخيبة، ولم يشأ أن تعزب حتى هذه المصادفة من غير أن يعكسها تماما ثم ينتفع بها ! ! فنشر بعد بضعة أيام في صحيفة (..) مايلى : « قدم صديقنا النابغة (...) في الامتحان فى وظيفـة خبير بالخطوط فـكان الرابع فى أقرانه . . ! ! ونحن لا يسعنا الا ان نهنئه بنبوغه . . ! ! ا . ه

حسبنا هذا القدر فى اظهار قيمة الشهرة ولو شئنا الافاضة لخرجنا عن الموضوع الذى تصـدينا له . وربما أفردنا لهـذا الموضوع رسالة خاصة به نطبعها على حدة ونبين فيها أشباه هذا

* * *

لسنا متحاملين على ابن هانىء فليس بيننا وبينه خصومة أدبية، وليس ثمت ما يحملنا على انتقاص أدبه أو تفضيل

الدعى واضرابه الكثيرين من المتهالكين على الشهرة»

ولو أننا شئنا الافاضة في سرد الامثلة الكثيرة للاستدلال على حقارة الشهرة، وقلة غنائها، واظهار الطرق الحقيرة والحيل السخيفة التى يسلكها عشاقها المفتونون بها، لامتد بنا نفس الكلام وخرجنا عما قصدنا اليه، فلنكتف باحالة القارىء الى ما كتبه النقادة الالمانى ماكس نورداو في كتابه «الغرائب. Paraxes» عن المجاح ووسائله، وقد لخصه الاستاذ العقاد فى مجلة البيان، فليرجع اليه من شاء.

على أننا لا نرى بأسا من اقتطاف الكلمة التالية من مقال طريف، حلو الدعابة، كتبه صديقنا الأستاذ سيدافندى ابراهيم فى العدد الثلاثين من صحيفة الرجاء، تعليقا على ما كتبناه فى ذلك وقد أيدفيه ماذهبنا اليه، وأورد بعض ملاحظات على مقالنا، ونحن نثبتها هنا، مع الشكر، لما فيها من الفكاهة والفائدة، قال:

* * *

«ولا أكتم الاديب أنى ألومه أشد اللوم على تقصيره فى انهاء تلك الرسالة التى وعدنا بها في مقاله الممتع فان بلدنا مكتظ

سواه عليه بغير حق ، بل لسنا ناقمين عليه بل هو فى رأينا من أساطين شعراء العربية (الكثيرين) . ولقد نجله ونكبر

بالادعياء الكثيرين الذين جنوا بالشهرة جنوناً فلم يجدوا أى غضاضة عليهم من التحايل على نيلها بكل وسيلة بالغة ما بلغت نزرايتها — من غير حياء ولا خجل —

وليس من ارضاء الضمير ولا من الاخلاص في العمل ، أن يتهاون الادباء بكشف حيل تلك الفئة القذرة التى تحميها قذراتها من أن يتناولها أحد بالنقد ، فتنتهز هذه الفرصة للتدليس على الجمهور الساذج — ونحن مع عرفاننا أن مجرد التفكير فى هذه الفئات شرف لهم أى شرف ، فانا لن نضن على هذا الآدمي — رغم ذلك — بهذا الفخار الذى تصبو اليه نفسه الحقيرة ويبذل فى سبيله ألف حيلة

لقد أظهر لنا الأديب صورة بهلوانية مضحكة من ذلك الممسوخ ولكنه — والحق يقال — تحري الصدق فى كل كلمة قالها —

وهذا فى رأيى أول شرط أساسى يجب على الناقد اتباعه — ولئن

آخذت الكاتب بشىء ، فهو أنه ترك بعض ملاحظات هامة كنت أرجو أن لا تفوته وأن لا يخلو منها مقاله الجميل — وقد يكون تركها عمداً اما رغبة منه فى الايجاز واما لأنه استكثر عليه مقالة

مواهبه ، ولقد نهش لكثير من مختار شعره ونتغنى به ونطرب له ، ولقد نصفق لكلامه استحسانا ، كل ذلك

ضافية لحقارته ، وانى أجمل ملاحظاتى وأسرد بعض النقط التى أغفلها فيما يأتي :

بدأ صديقى بقوله « أعرف رجلا ممن مارسوا صناعة الخط » — وانى استميح الصديق عذرا اذا لمته أشد اللوم على هذا الخلط المشين الذي دل على جهله التام بصناعة الخط وعدم صلاحيته مطلقا للحكم عليها

ولقد نجح ذلك الدعي فى حيله اذا ظفر بهذه التسمية من الخاصة — فان غاية مايقال عنه انه ممن مارسوا صناعة النقش، والفرق واضح بين الخط والنقش فيما اظن ! وانى لا أضن عليه بهذه التسمية ولا استكثرها عليه كما يفعل سواى . وثمة ملاحظة أخرى أبديها على مقاله وهي أنه أغفل الكلام على صورته :

ولئن صح ما يقولونه من أن الوجه مرآة صادقة التعبير عن دخيلة صاحبها . فان من ينظر الى سحنة ذلك النقاش يستطيع بأدنى تأمل أن يلمح على سيماه أربع صفات تسترعي انتباهته لاول وهلة وهي : الملق والغباء والصفاقة والادعاء

*
* *

ولقد صدق الشاعر العربى صالح ابن عبد القدوس حين قال

نقمله اذا ذكر اسمه على حده ، فاذا قسناه الى المتنبي أو قارناه به ، تضاءلت أمامنا شاعريته وظهر بمظهر العاجز العيي ، ولم

ما يبلغ الاعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

فقد بذل ذلك النقاش المتأنق جهودا كبيرة في التحايل على نشر صورته في بعض الصحف والمجلات ولم يدر انه بذلك قد أظهر للملأ صورة دقيقة كنا نأسف على فقدانها وكان يجهدنا النصب اذا حاولنا الحصول على مثل نستدل به على ما ذهبوا اليه من أن الوجه مرآة صادقة لصاحبه — وأنى يتاح للانسان أن يعثر على مثل هذه الصورة النفيسة التي نلمح فيها تلك الصفات الاربع ناطقة شاهدة واضحة لكل ذي عينين

ولا جرم أن صفاقته التي لا تقف عند حد وتزلفه بلا حساب لكل انسان ، قد تمكنا من نفسه — كما يشهد بذلك كل عارفيه — الى حد يحار الانسان في تعليله — وعلى هاتين الخلتين وحدهما بنيت شهرته عند العامة ، ولا بأس من سرد الفكاهة التالية لنتبين منها تلك الصفات الاربع التي ذكرناها جلية ، وللقارىء أن يروح بها عن نفسه وله أن يستنتج منها ما شاء زيادة على ما استنتجناه وعرفناه .

جاء ذات ليلة ووجهه يطفح بشرا وسرورا وقد ترنحت اعطافه بخمرة الزهو والفخار ، وما كاد يقترب من رفقته حتى قاطع

تمالك أنفسنا من احتقاره وليس يكلف نفسا الا وسعها
ثم إننا نظلم المتنبي كذلك ونغبنه أشد الغبن إذا قلنا
أنه أحسن من ابن هانیء ، أو عددنا له ميزات كثيرة عنه
ولله در من قال :

كلامهم قائلا بلهجة الظافر المنتصر — أتدرون ماذا صنعت ؟ ؟
لا — وكيف ندري !
ألم أقل لكم من قبل اني ألححت على شوقى بك منذ أكثر
من اسبوعين لينشیء لى بضع أبيات فى مدح خطى . وانه كان
يتهرب ويروغ مني وانه وعدنى كثيراً ثم أخلف ثم وعد ثم أخلف !
وهنا قاطعه أحدهم قائلا :
ألم أقل لك ان شوقى قد وصل ضيق ذرعه بك الى أقصى
حد ! — وانه شكا الى جلسائه مرارا من الحافك المتواصل — وانه
كاد يهجر « جروبى » بسبب مضايقتك اياه ! — فأجابه صاحبنا
مبتسما . « نعم — نعم . . أنا اعرف ذلك — ولكنني أيقنت أن
الالحاف هو الوسيلة الوحيدة التى انال بها بغيتي — فأكثرت من
التوسل اليه — وكنت كلما رأيت منه اعراضا ازددت عليه الحافا —
حتي اضجرته واضطررته أخيراً الى اجابة طلبي — وقد انشأ لى
الليلة عدة أبيات في مدح خطى ليتخلص منى نهائياً ! »
فصاح الجميع مهللين له : « مرحى . مرحى . لقد ظفرت

ألم تر أن السيف يزرى بقدره
اذا قيل هذا السيف أمضى من العصا

* *
*

وأين نفساهما؟

أين نفس ابن هانئ العادية بل الحقيرة المتملقة – إن شئتم – من تلك النفس الوثابة الطموحة – تلك النفس العظيمة التي اذا طرقت معنى شائعا أو متكررا أو سخيفا أبت حين تتناوله الا ان تطبعه بطابع العظمة التي امتازت به – انظروا الى ذلك المعنى العادى الذى عرف المتنبي كيف يجعله جليلا مع تناول الكثيرين من الشعراء اياه

القاتل السيف فى جسم القتيل به
وللسيوف كما للناس آجال

اذن بما تشتهيه!» ثم سألوه عما قاله شوقى بك في مدح خطه فتلى عليهم عدة أبيات أذكرتني بما قاله من قبل اعلانا عن ريشة صادق حين زعم أنها :

أغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها   من ريشة الألماس عند الغيد
وتكاد تحي مؤنسا بصريرها   وتقول: «أيام ابن مقلة !عودى»

انظروا كيف جعل من هذا المعنى قضية منطقية بديعة ودعمها ببرهان شعرى ، غاية فى الحسن ، فظهرت للناس صورة تامة ، تأنس اليها النفس ، وتهش لها

* * *

وهذه عادة أصيلة فى المتنبى ، بل ميزة خص بها دون الكثيرين من شعراء العربية ، فلا تكاد تقرأ له شعراً من غير أن تحس تلك الروعة وهذه الفخامة ، بل إن لشعره طابعا انماز به ، يدلك عليه فلا تحتاج الى السؤال عن قائله ، ولا تتردد فى أن تنسبه إلى المتنبى [1]

* * *

ولناقد أن يحاسبنا على ما رمينا به ابن هانىء من الملق وضعة النفس ، وزعمناه للمتنبي من الكبر والعظمة النفسية

---

(١) وهذه من أكبر مميزات شعر الفحول ، فان من الهين ان يميز الانسان بين شعر المتنبى والمعرى والبحتري وابن الرومي متى توافر على دراستهم ، لوضوح شخصياتهم جميعاً في أكثر اشعارهم ، وقلما يخطىء الانسان في ذلك ، اذا اعتمد على ذوق صحيح ، وطبع صادق ، ودراسة واسعة .

مع وفرة ما قاله فى المديح المملوء بالمبالغـة والتملق ، وربما حسب بعض الناس أن المتنبي صنو ابن هانىء من هـذه الوجهة ، وهو خطأ لا يسعنا السكوت عليه ، وكلام باطل أشبه ما يكون بالحق ، وقول يحتاج الى دقة وأناة

* * *

للمتنبي كثير من أشعار المدح الملأى بالملق ، كما لابن هانىء ، ففيم يمتاز الاول على الثانى ؟ وأين تلك العظمة المزعومة ؟

تلك العظمة التى نزعمها للمتنبي ـ أيها السادة ـ ظاهرة حتى فى هذا النوع من الشعر المملوء بالمبالغات السخيفة ، متى أنعمنا النظر

ونوجز فنقول : « إن مدح المتنبي للملوك والامراء يشعرك بأنه مدح كفء لكفء ، فاذا تملقهم فهو ند يتملق أنداده ، بل ربما شعرت من مديحه ـ أحيانا ـ أنه رجل أكبر منهم نفسا ، يشعر بتفوقه عليهم ، ولكنه يرى أدوات رفعته وضخامة شأنه ، ووسائل تحقيق رغبته منحصرة فى إرضائهم فى أول أمره ، ليتخذ منهم جسرا يعبر عليه الى آماله الكبيرة ، وكثيراً ما من عليهم بشعره ، وأظهر لهم بصريح

العبارة ضآلة ما يمنحونه من الهبات الوافرة بالقياس الى ما يكسوهم به من حلل الشعر الخالد

أما مدائح ابن هانىء فتشعرك بأنه فرد عادي ، كان أقصى أمله ، أن يمدح الملوك ويتملقهم ، حاسبا ذلك غاية الشرف ، ونهاية الرفعة ، فلا غرو اذا رأيته متزلفا فنيت شخصيته فيهم ، ورأيت المتنبي شامخ الرأس ، دالا عليهم يمدحهم بما يمدح نفسه به ، ويرى نفسه بينهم ، ملكا غير متوج ، بين ملوك متوجين »

*

* *

لنعد الى شعرهما الذى قال مؤرخو الآداب انهما اشتركا فى الكفر فيه فماذا نرى ؟

نرى أن المتنبي لا يزال حتى فى هذه المرة ذا خصائص نادرة .. كفر ابن هانىء بسبب معنى تافه حقير كان يمكن أداؤه بأسلوب أجمل وأبدع من غير اخلال بالبحر أو القافية فقال :

ماشئت لا ما شاءت الاقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار

وهو معنى يدلنا على نهاية الملق وصغار النفس وضيق

العقل ، وما أكثر وقوع ابن هانىء فى هذا المأزق[1] وكفر المتنبي ، كما يقول رجال الدين ؟ ولكن لأى معنى ؟ لمعنى جليل قد ينسى الناس جريمته وغرض تتمثل فيه نفسه الوثابة التى حلقت فى سماء العظمة اللانهائية ، فقال :

أى محل أرتقى   أى عظيم أتقى ؟
وكل ما قد خلق الله   وما لم يخلق
محتقر في همتى   كشعرة فى مفرقى !

وجماع القول أن المتنبى عظيم — وهو لو لم يكن شاعرا عظيما لكان شيئا آخر ، ولكن متصفا بصفة العظمة الملازمة له ، وقد خلقه الله ليكون عظيما فكان كما أراد الله أن يكون[2]

---

(١) ارجع الى ص . (١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢)

(٢) بعد ان انتهينا من كتابة هذا الفصل عثرنا برأى للفيلسوف الحكيم أبى العلاء المعرى حين سئل عن المتنبي فقال : « هو أشعر المحدثين » ثم سئل عن ابن هانىء فقال « ما أراه الا كرحى تطحن قرونا »

وهو حكم صائب يؤيد ما ذهبنا اليه ولا يضيره أن يحسبه بعض الناس صادراً عن هوى في نفس أبى العلاء لتعصبه

محمد بن عبد الرحمن (١)

٢٣٨ — ٢٧٣

اشتهر بغزواته الكثيرة ، وكان بينه وبين الفرنجة والمجوس وغيرهم حروب طاحنة ، وقد وجه همه الى الفتح ، وانتصر فى وقائع عديدة ، وقهر المجوس وأخذ منهم كثيراً من الغنائم بعد حرب عنيفة

وربما كان أهم ما حدث فى زمنه هو حروبه مع الشقى

للمتنبي ، فان نظرة طويلة في ديوانيهما تشعرك بصواب هذا الحكم العادل وصدقه !

***

ولعل أعجب ما يدهشك من شعر ابن هانيء أنك تقرؤه ، فتعجبك روعة أسلوبه ، وقوة تعبيره ، ومتانة حوكه ، فاذا رجعت الى مناقشته ، وتفهم ما تحويه تلك الالفاظ الرنانة وجدت معنى تافها لا قيمة له ، أو معنى لم ينضج بعد ، أو معنى شائعاً متكرراً ، وربما وجدت بعض أبياتها المتينة الاسلوب خاليا من المعنى .

(١) ولي الملك وعمره ثلاثون سنة تقريباً

الجرىء ابن حفصون ، الذى قوى أمره واستضخم شأنه فى زمنه ، وقد استطاع محمد أن يخضعه مدة حكمه ، ولكنه مات قبل أن يقضى على ابن حفصون

صفاته

وقد وصفوا هذا الامير بأنه كان عادلا واسع الحلم ، كريم الخلق حسن البديهة والروية ، عالما بالحساب ، وفيا لمواليه فى أنفسهم وفى أعقابهم ، لا يسمع فيهم وشاية ، فأحبه الناس وأخلصوا له

وقد دفعته شدة التمسك بدينه الى اضطهاد نصارى قرطبة .

دخول المذهب الحنبلي في زمنه

وقام نزاع فى أول حكمه بين فقهاء قرطبة وبقي بن مخلد [1] الذى رحل من الاندلس الى المشرق حيث تلقى مذهب ابن حنبل - فلما رجع الى الاندلس بدأ يدرسه في جامع قرطبة، فثار عليه مدرسو المذهب المالكى، وأنكروا عليه ما فيه من الخلاف ، واستبشعوه ، وقام عليه جماعة من العامة ومنعوه من قراءته ، ولما بلغت الامير محمد شكاة خصومه، استحضرهم واياه وتصفح الكتاب الذى معه - وهو مصنف أبى بكر بن أبى شيبه فى اصول المذهب الحنبلي - جزءا جزءا حتى أتى على آخره ، ثم قال لخازن كتبه : « هذا لا تستغنى عنه خزانتنا ، فانظر فى نسخة لنا » ، وقال لبقى : « انشر علمك وارو ما عندك »

ثم نهاهم عن أن يتعرضوا له

---

(١) ولد بقى فى سنة ٢٠١ ومات في سنة ٢٧٦ ، ورحل من الأندلس الى المشرق حيث تلقي مذهب ابن حنبل على أشهر علمائه ، ثم رجع الى الأندلس فبدأ يدرسه في جامع قرطبة

المنذر بن محمد (١)

٢٧٣ - ٢٧٥

مات الامير محمد فى سنة ٢٧٣ فوليه ابنه المنذر ، وقد أقام فى الملك عامين قتل فى السنة الاولى منها وزير أبيه ، هشام بن عبدالعزيز (٢)

---

(١) ولد سنة ٢١٩ هـ ، وولى الملك وعمره أربع وأربعون سنة

(٢) وقد قالوا ان أهل قرطبة كانوا يسعون فيه لدى المنذر ، ويقولون كلامه للايقاع به ، لشدة حبه ووفائه للأمير محمد ، حتى انهم تأولوا قوله ، فى الامير محمد ، عند موارانه :

أعزى يا محمد عنك نفسي   أمين الله ! ذا المنن الجسام !

فهلا مات قوم لم يموتوا   ودوفع عنك لي كأس الحمام ؟

فقالوا انه يعني المنذر بقوله : « قوم لم يموتوا »

ولم يزل يزداد سخط الامير عليه ، حتى أمر بحبسه ، ثم بعث اليه من قتله فى سجنه ، ونهب ماله وسجن أولاده

ومما كتبه هذا الوزير وهو في سجنه ، الي جاريته ، قوله :

وأشهر ما حدث له ، حربه مع ابن حفصون فقد فتح جميع قلاعه وحصونه ، ولما شدد عليه الحصار ، سأله الصلح ، فأجابه وافرج عنه ، فنكث ، فرجع لحصاره ، ولكنه مات ، وهو يحاصر ابن حفصون

وانى عدانى أن أزورك ، مطبق
وباب منيع بالحديد مضبب
فان تعجبي يا عاج مما أصابني
ففي ريب هـذا الدهر ما يتعجب
تركت رشاد الامر اذ كنت قادرا
عليه ، فلاقيت الذى كنت أرهب
وكم قائل قال : ,, انج ويحك سالما
ففى الارض عنهم مستراد ومذهب ،،
فقلت له : « ان الفرار مذلة
ونفسى على الاسواء أحلى وأطيب »
سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى
وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شامتا بى ، فانه
سينهل فى كأسى وشيكا ويشرب !

عبد الله بن محمد (١)

٢٧٥ - ٣٠٠

ولى الملك عقب موت اخيه المنذر بن محمد ، وكان عصره مملوءا بالاضطراب والفتن ، وكثر قيام الثوار فى زمنه وتغلبوا على الكور والمدن ، وامتنعوا عن اداء الخراج ، ولولا انقطاع القتال بينه وبين الفرنج والجلالقة حينئذ ، لتقوضت اركان مملكته ، فقد ارتبكت أحوال الأندلس فى زمنه ، ارتباكا شديدا ، وأصبحت مجالا لمنازعات القبائل الفاتحة وميدانا للفتن والشقاق بين الاسرة المالكة ، وقد ضاعف أحزانه ، ثورة ابنه محمد والى اشبيليه (٢) من ناحية

(١) ولد سنة ٢٧٥ وولى الملك وعمره خمس واربعون سنة

(٢) قالوا : « وكان السبب فى ذلك هو أن الامير عبد الله والد محمد هذا ، اطلق سراح ابى هاشم بن عبد العزيز ، الوزير الذى مر ذكره فى ص (١٨١) واطلق سراح معلمها جابر بن مغيث أحد مشاهير العلماء فى ذلك العصر ، ورد اليهم أموالهم ، فكان من ذلك ان أحبه أهل قرطبة ، وسخطت عليه اسرته ، ولا سيما

وشدة مناوأة ابن حفصون وتمرده عليه من ناحية أخرى ، وقد انتهى أمر الاول منهما بأن حاربه ابوه ، وأسره ، وحبسه فى قلعة اشبيليه ، حيث مات فى سجنه ، وقد واصل عبدالله كفاحه مع ابن حفصون ، كما واصل حروبه فى محاربة غيره من الثوار والفاتحين

أوصافه

كان جميل الصورة ، أزرق العينين ، معتدل القامة ، فطنا ، عالما ، شجاعا

حزنه على امه

ومات امه فى سنة ٢٩٩ ، فحزن عليها أشد الحزن ، وبنى لها قبرا فخما ، وبنى لنفسه قبرا آخر بجواره ، وزهد فى الدنيا ، فجمع الامراء والوزراء والولاة ، وأوصى بولاية عهد المملكة لحفيده عبد الرحمن ابن محمد ، اذ رأى القلوب مجمعة عليه

ابنه محمد والى أشبيلية ، فثار عليه مع أخويه الاصبغ والقاسم والي شريش وشذونة في جنوب الاندلس ، وانضم اليهم ولاة آخرون .

أمثلة من نثره

— ١ —

مثال من محادثاته

اعتذر اليه يوما بعض مواليه فقال له عبد الله :

„ إن مخائل الامور لتدل على خلاف قولك ، وتنبيء عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك وأسدل استر العفو عليك „

فقال :

„ قد اشتمل الذنب على ، وحاق الخطأ بي ، وانما أنا بشر ، وما يقوم لى عذر ! „

فأجابه عبد الله :

„ مهلا عليك ! رويدا بك ! تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل ، وقد وسعك الغفران ! „

— ٢ —

مثال من كتابته

وكتب الى بعض عماله :

„ أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتبالك به، على حسب متوترك بالكتب واشتغالك بذلك على مهم امرك، لكنت من أحسن رجالنا غناء، وأتمهم نظرا وأفضلهم حزما، فأقلل من الكتاب فيما لا وجه له، ولا نفع فيه، واصرف همتك، وفكرتك، وعنايتك الى ما يبدو فيه اكتفاؤك ويظهر فيه غناؤك ـ ان شاء الله ! „

أمثلة من شعره

— ١ —

مثال من غزله

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ... ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتي به ... في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت ابرازها ... تبارك الرحمن ما اطوعك!

— ٢ —

مثال آخر (١)

ويحي على شادن كحيل ... في مثله يخلع العذار
كأنما وجنتاه ورد ... خالطه النور والبهار
قضيب بان اذا تثنى ... يدير طرفا به احورار
فصفو ودى عليه وقف ... ما اطرد الليل والنهار

---

(١) قاله في صباه

— ٣ —

مثال من زهده

يا من يراوغه الأجل   حتام يلهيك الأمل !
حتام لا تخشى الردى   وكأنه بك قد نزل !
أغفلت عن طلب النجا   ة ولا نجاة لمن غفل !
هيهات يشغلك المنى   ولا يدوم لك الشغل !

— ٤ —

مثال آخر

أرى الدنيا تصير الى فناء   وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالانابة غير وان   على شيء يصير الى فناء
كأنك قد حملت على سرير   وغيب حسن وجهك فى الثراء
فنافس فى التقى واجنح اليه   لعلك ترضين رب السماء

﴿ اختراع الموشحات ﴾

فى زمن هذا الامير اخترع الموشحات مقدم بن معافر الفريرى ؛ وسنتناول الكلام عنها بعد قليل

عبد الرحمن الناصر (١)

٣٠٠ – ٣٥٠ﻫ

„ وفى سنة ٩١٢ م . خلف أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، جده الامير عبدالله . على عرش قرطبة ، وإن صفاته وذكاءه وحكمته فى سوس مملكته العظيمة لتتجلى فى القطعة التالية التي خطها قلم المؤرخ الاديب « دوزى » الذى سيظل كتابه عمدة الباحث ، وإن الفه منذ خمسين عاما

* * *

„ ينفرد عبد الرحمن الثالث بالمكان الاول ، بلامنازع من بين الملوك الأمويين الذين حكموا اسبانيا ، وان ما أتمه وحده ، ليكاد يكون معجزة ، فقد وجد الامبراطورية سائرة إلى طريق الفوضى والحروب الداخلية ، ورأى الفتن والاحزاب السياسية قد انهكتها ، والفاها مقتسمة بين

---

(١) معربة عن الفصل التاسع من كتاب تاريخ اداب العرب للاستاذ نيكلسون

كثير من الامراء المتباينى الأجناس ، ورآها معرضة لإغارات مسيحيي الشمال التى لا تنقطع ، كما رأى أنها على وشك أن يلتهمها أحد اثنين ، هما الليونيون والافارقة ، فأنقذ اسبانيا — بالرغم من العقبات التى لا تحصى — منهما جميعا ، ونجاها من الخراب الداخلى وصد عنها الغارات الخارجية وبعث فيها روحا جديدة ، وجعلها أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مرت به ، ونظمها وأسعد حال أهلها وجعلها محترمة فى الخارج

وكان بيت المال فى حال يرثى لها ، فامتلأ فى عهده ، وقد خصص من ايراد مملكته السنوى الذى بلغ ٦٫٢٤٥٫٠٠٠ جنيها ، ثلثا كان يصرفه فى النفقات العادية ، وثلثا احتياطيا يدخره ، وثلثا ينفقه على مبانيه (١)

وقد قدر ما فى خزائن بيت ماله فى سنة ٩٥١م. بمبلغ عظيم بلغ (٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠) جنيه وهو ما يجعلنا نثق بأن ما قاله أحد السائحين من ان عبد الرحمن هذا والحمدانى

---

(١) وهذا يسهل لكم ادراك السر فى تقدم فن العمارة الذى وصل فى عصره الى حد يدعو للدهشة كما سنبينه

(ناصر الدولة) الذى كان حينئذ حاكما فى بلاد الجزيرة (بين النهرين) كانا أغنى معاصريهما — لم يكن جزافا ، وانه لم يقل ذلك لعدم تقديره للمسائل المالية أو جهله بها — وقد كانت سعادة المملكة متوقفة على سعادة بيت المال ، ومن ثم نجحت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم — وان قرطبة التى فيها نصف مليون نسمة وثلاثة آلاف مسجد — والتي فيها القصور الفخمة والتي بها ١١٣ ألف منزل و ٣٠٠ ماخورة وثمان وعشرون ضاحية لم يكن ليفوقها فى سعتها وعظمتها وابهتها الا بغداد وحدها ، ذلك البلد الذى طالما شغف القرطبيون بمقارنتها به ، ولقد كانت قوة عبد الرحمن عظيمة ، فقد كان يناصره اسطول كبير فى منازعاته مع الفاطميين دولة للبحر الابيض وقد غنم سبتة مفتاح موريتانيا

ثم إن جيشه الكبير الذى كان على اتم نظام والذى ربما كان احسن جيش فى العالم — قد جعله يتفوق على المسيحيين قاطنى الشمال — وقد رغب فى محالفته حتى اشد الحكام صلفا فلقد ارسل امبراطور القسطنطينية وملوك الالمان وايطاليا

وفرنسا سفراءهم اليه (١)

ويقيني ان تلك نتائج باهرة ـ ولكن دهشتنا واعجابنا بهذا العمل اذ ندرس ذلك العصر الذهبي لا يبلغان الحد الذى يصلان اليه ، بنفس الرجل الذى قام بهذا العمل ولكنها العبقرية والذكاء الواسع الذى لا تند عنه شاردة هما اللذان يجعلاننا لا يقل اعجابنا برأيه فى ادق التفاصيل عنه فى اعوص المسائل وأعضاها

وإن ذلك الداهية الالمعى الذى جمع الكلمة ووحد المملكة و لذى اوجد بمحالفاته نوعا من التوازن والذى استطاع بأناته وحلمه الواسع أن يضم الى مجلسه السياسي اساتذة الاقاليم الاخرى لهو اقرب الى ان يكون ملكا حديثاً منه الي ان يكون ملكا من ملوك القرون الوسطى ،

* * *

وموجز القول ان عبد الرحمن الثالث جعل مسلمى الاندلس أمة واحدة وكون من العرب والاسبان امة اندلسية متضافرة

تلك الامة التى تقدمت بسرعة لا يصدقها العقل كما

---

(١) سيمر بك شيء من ذلك بعد قليل .

ستروتها الآن - الى مستوى تهذيبي عال، جعل اوروبا تحسدها عليه، ووصل بها الى حد لم تضارعها معه اية مملكة من ممالك الشرق الاسلامية - ومهما يكن من شيء فقد بدأ سقوط الأسرة الاموية بعد مماته. ا. هـ ،،

* * *

ونحن لا نتمالك أنفسنا من الاعجاب بهذا الوصف الشائق الذى أتحفنا به العلامة دوزى، وليس يسعنا كما أنه لا يسع أى منصف الا موافقته على كل ما جاء فيه واعتماده فان ذلك الوصف -وان يكن يبدو فيه لمن يلقى عليه النظرة الاولى أو يقرؤه لاول وهلة، شىء من تحيز دوزى لعبدالرحمن الناصر - الا أنه مع ذلك وصف حق، خال من الاغراق والهوى ولا يلبث المنصف المدقق أن يقره عليه ويعتمد صدق ما جاء فيه، والحق أن عبدالرحمن الناصر لم يكن ملكا جديرا بالاعجاب فحسب، بل كان زيادة على ذلك رجلا جديرا بخلود الذكر - وانه ليجهدنا البحث اذا حاولنا أن نعثر بأمثاله القليلين فى التاريخ، فان امثاله من الملوك لا يشارفون

العالم الا الماما ولا يظفر بهم التاريخ الا نادرا ـ نعم وليسوا ممن يوجدون فى كل قرن (١)

---

(١) ونحن يا سادة حين ندرس أمثال عبد الرحمن الداخل أو عبد الرحمن الناصر ونرى ما قام به كل منهما من جليل الاعمال نستطيع أن ندرك بسهولة ، الباعث الأول والمؤثرات الحقيقية التى كان لها أكبر الأثر في الأدب الاندلسي

فان من لا يفهم تماما أن عبد الرحمن الثالث مثلا قد جعل مسلمى الاندلس امة واحدة ، وكون من العرب والاسبان امة أندلسية متضافرة كامـ ـ وان من لا يعلم أن الزراعة والصناعة قد نجحت وان الامن استتب وان غناء الدولة قد وصل في مدته الى درجة لا تسامى ـ لن يفهم سر الروح الادبية التى سرت في الامة حينئذ ، وليس من يجهل أمثال هذه العصور التي تحيا بها الأمم ، والتى لولاها لبادت ولما كان لها شأن يذكر فى عالم التاريخ ، بحقيق أن يفهم الدرجة التى وصلت اليها بلاغتها ولا بجدير أن يدرك الاسباب التى وصلت بها الي تلك الدرجة ـ ولن يكون شأنه الا كشأن الكثيرين عندنا ممن يحسبون دراسة بلاغة امة ما ، لا يتخطى حفظ بضع طرف وأشعار بديعة وعدة نماذج قيمة فهم لا يعرفون من تاريخ الادب الاندلسي مثلا ، أكثر من أن ابن زيدون كان شاعراً فحلا ، وانه كان يحب ولادة ويراسلها وتراسله

*
* *

ولكن كم يتفجع الانسان ويتحسر وتتحول غبطته وسروره بهذا العصر الذهبي الى أسى عميق وحزن يذهله

وان من خير قصائده نونيته المشهورة الخ الخ

ثم يعرفون بعد ذلك بضع أشعار متفرقة لبضع شعراء متفرقين دون أن يعرفوا في أي عصر نشأ شاعرهم ولا المؤثرات التي أثرت في شعره ولا اثر شعره في الحالة العامة وأثر الحالة العامة في شعره ، وارتباط ذلك كله بالحالة السياسية وارتباط الحالة السياسية به

* * *

وهل يكتفي من يود دراسة بلاغة امة ما ، بعدة محفوظات متفرقه غير مرتبط بعضها ببعض ، ولا مقيد بزمان ولا مكان ؟ وهل استطيع ان أقول اني ملم بالبلاغة الاندلسية لأني أحفظ تراجم ست شعراء ونحو عشرين قصيدة لهم ؟ وهل يكفينا أن نتلو في مثل هذه المحاضرات قول ابن زيدون :

واها لعطفك والزمان كأنما صبغت نضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصر طوله هاتي وقد غفل الرقيب وهاك

حتى اذا بلغنا قوله :

أما مني نفسي فأنت جميعها يا ليتني اصبحت بعض مناك !

عن نفسه حين يقرأ هذه الجملة التي ختم بها نيكلسون كلامه الذى علق به على كلام دوزي وهى قوله ” ومهما يكن من

يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم، أكاد به اقبل فاك

صفقنا استحسانا له، وسحرنا اهتداؤه الى هذا المعنى الباهر الذى يمثل تلك الصورة الحقيقية ويشرح حال العاشق الصادق في عشقه بهذه الدقة النادرة، فى قوله:

يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم اكاد به اقبل فاك

نعم يا سادة: انها أبيات رائعة قلما نعثر على شبيهها فى الشعر العربى، وليس من شك في أنها من اعلى امثلة البلاغة الحقة، ولكنها مع ذلك ليست وحدها كل المقصود من دراسة البلاغة وتاريخها

* * *

وانى على يقين من ان من لا يدرس التاريخ العام دراسة مفصلة لن يستطيع ان يحكم بنفسه حكما صادقا على بلاغة امة ما ولن تكون دراسته الا كدراسة مدارسنا للبلاغة، اذ يكتفي الطالب فيها بالالمام بطائفة من اسماء الشعراء والادباء، وطائفة من مختار أقوالهم وعدة احكام لا رأي له فيها مطلقا، لقنها له استاذه تلقينا واداها اليه امانة لم تنقص ولم تزد، كما نقلها عن استاذه هو الآخر بدوره – وهي طريقة يجب محاربتها بكل وسيلة – على انى لا ارى وجوب دراسة التاريخ العام فحسب، للوصول به الى نفهم

شيء ، فقد بدأ سقوط الاسرة الاموية بعد مماته ،،

يحزننا ذلك لانها جملة تعودنا أن نسمع أشباهها من

البلاغة على حقيقتها، بل ازيد على ذلك وجوب دراسة علم تقويم البلدان، لاسيما الاقليم الذي نشأت فيه تلك الآداب ونمت، مع العناية التامة بتفهم أثر المناخ وأثر موقع البلد الى آخر تلك الاسباب التي تباين بين الامزجة والطبائع — ولخير للانسان ان يلم بعصر واحد من العصور الماما مجديا ، من ان يكون راوية لتراجم ألف شاعر لا يعلم ارتباطهم بالتاريخ العام ، وارتباط التاريخ العام بهم ، واثرهم في الحضارة ، واثر الحضارة فيهم — بل انى لاجرؤ فأقول : ان خيرا للانسان ان لا يدرس آدابا قط من ان يدرسها بالطريقة المضطربة التى سلكها كثير ممن كتبوا فى تاريخ الأدب عندنا — اللهم الا اذا كان الغرض من دراسته هو الاقتصار على دراسة بضع منتخبات ونماذج من البلاغة لتقوية الملكات اللغوية وتهذيب الذوق الأدبى فحسب — وانما رددنا هذه الملاحظة مرة اخرى لاننا على يقين من ان الكثيرين منا لا يزالون يعتقدون ان دراسة تاريخ البلاغة معناه الاكتفاء بذكر ترجمة مشاهير الشعراء والاقتصار على نخبة من أشعارهم — وهم في ذلك يرون ان من الاسراف ان يتوسع الانسان فى الكلام على التاريخ العام — على اننا كلما

المؤرخين لا سيما المختصين منهم بالكلام على التاريخ الأندلسى ولا مندوحة للمطلع على تاريخ المسلمين ، لا سيما فى اسبانيا ، من سماع هذه الجملة عقب كل ملك قوى عظيم !!

ازددنا بحثا فى دراسة بلاغة امة ما وأعوزنا تفهم الاسباب التى أدت الى نتائج خاصة ، كلما ازداد شعورنا بالحاجة الشديدة الى التوسع لا فى دراسة تاريخها العام وحده بل وفى علم تقويم البلدان ايضا

أثر الناصر في الاندلس

„ وجد الاندلس مضطربة فسكنها ، وقاتل المخالفين حتى أذعنوا واستنزل الثوار ومحى اثر ابن حفصون [1] كبيرهم ، وحمل اهل طيطلة على الطاعة وكانوا معروفين بالخلاف والانتقاض — واستقامت الاندلس وسائر جهاتها فى نيف وعشرين سنة من أيامه ودامت نحوا من خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك النواحي — وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين عند تلاشي الخلافة بالمشرق ا.هـ [2] „

سبب تلقبه بالخلافة

فانه لما رأي هياج الدولة العباسية وضعفها فى المشرق وظهور الدولة التركية والديلمية أيقن ان امرة المؤمنين لائقة به ، فلقب نفسه امير المؤمنين ا. هـ »

---

(١) وقد مات الشقى عمر بن حفصون في سنة ٣٠٦ بعد أن هدد ملك الأمويين طويلا ، وكاد يثل عرشهم مرارا ، فزال بموته أكبر شبح مرعب للفوضى (٢) ابن خلدون

وقد أورث من أعقبه هذا اللقب . واستهل خطيب جامع قرطبة خطبة الجمعة بذكر ذلك فى سنة ٣١٦ ، وقد انفذ الناصر كتبه الى عماله بالمنشور التالى :

منشور الخلافة

,, أما بعد ، فإنا احق من استوفى حقه ، واجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه — الذى فضلنا به ، واظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على ايدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه — وللذي اشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ، واعان من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولى الانعام — بما انعم به ، واهل الفضل ، بما تفضل علينا فيه

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا ، وورودها علينا بذلك . إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه

وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك

أن يقول به، واجر مخاطبتك لنا عليه — ان شاء الله، والله المستعان،،

أثره فى الحضارة الاندلسية

،، ولما استفحل ملك الناصر [١]، صرف نظره الى تشييد المبانى والقصور، وكان جده الامير محمد، وابوه عبدالرحمن الأوسط، وجده الحكم، قد اختلفوا فى ذلك وبنوا قصورهم على اكبر الاتفاق والضخامة، وكان منها المجلس الزاهر والبهو الكامل والقصر المنيف، فبنى هو الى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة، وجلب الماء الى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم اخذ فى بناء المنتزهات، فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل — على بعد المسافة،،

تشييد مدينة الزهراء

« ثم اختط مدينة الزهراء، واتخذها منزله، وكرسيا

---

(١) ابن خلدون

لملكه ، فأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الاولى ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياح ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها داراً لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة ، وغير ذلك من المهن

وأمر أن تعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة ، وقاية للناس من حر الشمس (١) »

* * *

وقد عني الناصر عناية خاصة بانشاء نافورات من المرمر الجميل فى جوامع قرطبة واشبيلية ، يكتنفها بوح يغرس فيها شجر البرتقال والاس وغيرهما

وأصلح قنطرة النهر الكبير ، وضرب نقودا جديدة وضع عليها اسمه وألقابه (٢)

---

(١) ابن خلدون

(٢) وكان ذلك فى السنة التى تلقب فيها بالخلافة أي في سنة (٣١٦ هـ) . فأمر باقامة دار السكة داخل قرطبة لضرب الدنانير والدراهم ، وكانت مثاقيلة ودراهمه محضا من خالص الذهب والفضة .

***

ومما استدل به بعض المؤرخين على رقى عصره ، ما حكوه من أنه أراد الفصد ذات يوم ، فقعد بالبهو فى المجلس الكبير ، المشرف على مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة ، وجبس يد الناصر وإنه لكذلك ، واذا بزرزور قد أطل ،فصعد على اناء ذهب بالمجلس ، وانشد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا
انما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ،فاستظرفه الناصر وسر به وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور ، فذكر له ان السيدة الكبرى مرجانة ام ولده ولى عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لهذا الامر

قالوا : «فوهب لها ما ينيف على ٣٠ الف دينار !».

العصر الذهبي

وقد أصاب المؤرخون فى تسميتهم هـذا العصر الاندلسى بالعصر الذهبي[١] فقـد نفقت فيه سوق العلم والأدب وارتقت فيـه الفنون، فكنت ترى أني ذهبت مجالس أدب ومجالس علم ومجالس غناء، وكان بلاط الناصر مزدحما بالعلماء ورجال الأدب والفن

هدية قسطنطين

ولما عظم أمر الناصر، وارتفع شأنه، رغب فى محالفته حتى أشد الملوك صلفا ـ كما يقول دوزى ـ وكان من بين هؤلاء الملوك قسطنطين ملك الروم الذى بعث اليه بهديته المشهورة وأرسل معها كتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التي كانت بين أسلافهما مع خلفاء بغداد

قالوا: ,, وكتب هذا الكتاب بحروف من ذهب فى رق سماوى اللون، وفيه طرس سماوى أيضا كتب بحروف

---

(١) تشمل هذه التسمية عصرى الناصر وابنه الحكم الثاني

من الفضة يصف الهدية وأصنافها، وكلاهما بالخط الاغريقي

*
* *

فأحسن الناصر لقاء الرسل، حتى اذا وصلوا الى قصر قرطبة، بهرهم ما رأوه من بهجة الملك وروعته، وأمر الخليفة بعض الادباء والشعراء بالخطابة بما يناسب ذلك المقام

ارتباك أبى على القالى (١)

فبدأ الكلام أبو على القالى، فحمد الله، وصلى على النبى،

---

(١) ترجمة القالى

المتوفي سنة ٣٥٦

اسمه اسماعيل، ولقبه أبو على، واسم أبيه القاسم وكان من موالي عبد الملك بن مروان.

أكثر أبو على من حفظ اللغة والشعر، وعنى عناية شديدة بدرس نحو البصريين، وتتلمذ لابن دريد، ونفطويه، وابن درستويه، وغيرهم.

وقد أقام ببغداد ٢٥ سنة ثم أقام بالموصل زمنا، ثم وفد على الاندلس فى زمن الناصر، وكان ابنه الحكم يتصرف حينئذ من أمر ابيه كالوزير، فأمر عاملهم ابن رماحس؛ أن يجيء مع أبى على

ثم ارتج عليه لهول المحفل وأبهة الخلافة .

الى قرطبة فى وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكرمة لأبى على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الادب في طريقهم ، ويتناشدون الاشعار ، الى ان تجاوزوا يوما ، وهم سائرون ، أدب عبدالملك بن مروان ، ومسألته جلساءه عن أفضل المناديل ، وانشاده البيت :

« ثمت قمنا الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل »

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا على ، فأنشد الكلمة فى البيت :

« اعرافها لأيدينا مناديل »

فانكرها ابن رفاعة الألبيري. وكان من أهل الادب والمعرفة ، وفي خلقه حرج وزعارة ، فاستعاد أبا علي البيت مستثبتا مرتين فى كلتيهما انشده « أعرافها »

فلوي ابن رفاعة عنانه منصرفا ، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس ، لا يغلط الصبيان فيه ، والله لا تبعته خطوة » وانصرف عن الجماعة ، وندبه أميره ابن رماحس الا يفعل ، فلم فلم يجد فيه حيلة ، وكتب الى الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه ، فاجابه على ظهر كتابه : « الحمد لله الذي جعل فى بادية من بوادينا من يخطىء وافد أهل العراق الينا ، وابن

قالوا: « وانقطع ، وبهت ، فما وصل إلا قطع ، فوقف

رفاعة اولى بالرضا عنه من السخط ، فدعه لشأنه ، واقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته ، فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله أو يحطه » ا . ه

وفى هذا الجواب تتمثلون عدل الحكم وانصافه ، ووفور عقله ، وغزارة أدبه كما تتمثلون من هذه الحكاية ، شدة تعلق الادباء بالمسائل العروضية واشباهها ، وفيها دليل آخر على ما سقناه من اكبار الاندلسيين لرجال الشرق وعلمائه .

ونريد ان لا يفوت القارىء ان مثل هـذا الخطأ العروضى الذى وقع فيه الاديب ابن القالى لا ينقص من قيمته الادبية ، ولا يزيد في قيمة ابن رفاعة ، ولئن صحت دلالته على شيء ، فهو يدل على تسرع ذلك الاديب الاندلسى فى حكمه ، وترقبه لبادرة يظفر بها من ابن القالى فيطير بها فرحا ، ويملأ ماضغيه فخرا ، فينبه بذلك امره .

***

ومن يدري ؟ فربما كان ابو علي فى شغل شاغل ـ اثناء تلاوته هذا البيت ـ بالتفكير فى موطنه الشرقى أو حدس ما عساه يجده من الاقبال فى الاندلس ، أو التدبر فى اى شأن آخر .

على اننا ـ اذا علمنا أنه لم يصحح وزن بيت من الشعر فان

ساكتاً مفكراً »

ذلك لايدل على شيء اكثر من فقدانه الروح الموسيقية وحدها، وذلك لا يطعن في سلامة ذوقه الادبي وحسن اختياره، وسعة علمه .

***

ولقد تعلثم ابو علي القالي وارتج عليه حين اراد الترحيب برسل ملك الروم ، واظهار مجد الاسلام امامهم ، فهل دل ذلك على شيء اكثر من ان لكل مقام ناسا لايصلحون الا له .

فلأبي علي القالي ، التفكير الهادىء والبحث الادبي المطمئن، وتمحيص الروايات والاسانيد ، ولابن سعيد البلوطي وأشباهه الثرثرة والتأثير الخطابي على نفوس سامعيه . وليس في استطاعة احدهما ان يقوم مقام الآخر.

ونحن نحيل القارىء على اخبار ابي العلاء صاعد في الجزء الثاني من نفح الطيب (من ص ٥٢ ـ ٥٩) وفي كتاب المعجب (من ص ١٦ ـ ٢٠) ليتبين منها مثلا نادرا للثرثرة وسرعة البداهة وحضور الجواب ، مع البعد الشديد عن تمحيص ما يقول ، او تحري الدقة في كلامه ، وسيمر بك شيء من أخباره

خطبة منذر بن سعيد البلوطى (١)

فلما رأى منذر بن سعيد البلوطى ذلك ، قام قائماً بدرجة من مرقاة أبى على ، ووصل افتتاحه ، وخطب خطبة ضافية ، نختار منها قوله :

---

(١) ترجمة منذر بن سعيد البلوطى

ولد سنة ٢٧٣ عند ولاية المنذر بن محمد ، وتوفي سنة ٣٥٥ وقد ولاه الناصر القضاء بقرطبة ، بعد ان ثبت له كفاءته وسعة علمه ؛ وكان مهيباً قوى النفوذ ، وله كتب كثيرة فى السنة والورع ، وقد نظم بعض أشعار في الزهد منها قوله :

المـوت حوض ، وكلنا نرد لم ينـج مما يخافه أحد
فلا تـكن مغرما برزق غد فلست تدرى بما يجىء غد
وخـذ من الدهر ما أتاك به ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لاتدعه فما فى الناس الا التشنيـع والحسد

وقوله :

كم تصابي وقد علاك المشيب وتعامى عمداً ، وأنت اللبيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير ان سيأتى الحمام منك قريب

„ وانى اذكركم نعم الله تعالى عليكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم ، وآمنت سربكم ، ورفعت خوفكم ، بعدان كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم ، واسند اليه امامتكم ،

يا سفيها ، قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب !
ان للموت سكرة فارتقبها لايداويك ـ ان أتتك ـ طبيب

وفى ختام هذه الابيات يقول :

ليس من ساعة من الدهر الا للمنايا عليك فيها رقيب

وكتب اليه بعض الادباء بقوله :

مسألة جئتك مستفتياً عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا وأوجه العشاق فيها اصفرار

فاجابه منذر بقوله :

احمر وجه الظبى اذ لحظه سيف على العشاق فيه احمرار
واصفر وجه الصب لما نأي والشمس تبقى للمغيب اصفرار

وفي هذا مثل نتبين منه طريقة فهمهم للادب ونوع تفكيرهم فيه ؛

ومما حكاه عن نفسه ، ماحدث له مع أبي جعفر بن النحاس ، وهو في مجلسه هناك ، يملي في اخبار الشعراء ، شعر قيس المجنون ؛ حيث يقول :

خليلي هل بالشام عين حزينة تبكي على نجد لعلى أعينها

أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، واحاطت بكم شُعل النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرجاء ، وانتقلتم بيمن سياسته الى كنف العافية بعد استيطان البلاء ، أنشدكم الله يا معشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فآمنها ، والاموال منتهبة فاحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؛ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم ، بعد افتراقها بامامته ، حتى اذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوكم ، بعد ان

قد اسلمها الباكون الا حمامة مطوقة بانت وبات قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدنيها من الارض لينها

فقال له : « يا أبا جعفر ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ » فقال لي : « وكيف تقوله أنت يا أندلسي ؟ » فقلت له : « بانت وبان قرينها ! » فسكت : قال ابن سعيد : « وما زال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين ، وكنت ذهبت الى الاستنساخ من نسخته . »

وسيمر بك طرف من اخبار ابن سعيد هذا بعد قليل .

كان بأسكم بينكم ، ناشدتكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ، ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه بعد اضطراب احوالها ؛ ولم يكل ذلك إلى القواد والاجناد ، حتى باشركم بالمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الاوطان ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ،، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ،،

قالوا : « ولما فرغ من خطبته أنشد معرضاً بأبى على القالى :

هذا المقال الذى ما عابه فند ... لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً ... لكنني منهم فاغتالنى النكد

وقد بلغ اعجاب الناصر والحاضرين بهذه الخطبة أقصى حد ، وكانت سبباً فى رفعة شأنه ونباهة ذكره فيما بعد (١)

---

(١) ومما قاله مفتخراً بأقدامه ، وشجاعته ؛ بمناسبة تلك

فقد ولاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع وأمره على الصلاة بالزهراء ، ولما مات محمد بن عيسى القاضى ولاه الناصر قضاء الجماعة بقرطبة

الخطبة ، الابيات التالية :

مقال كحد السيف وسط المحافل فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترمى جنباته كبارق رعد عند رقس الأنامل
فما دحضت رجلي ولا زل مقولى ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
وقد حدقت نحوي عيون اخالها كمثل سهام انبتت فى المقاتل
لخير امام كان أو هو كائن لمقتبل ، أو فى العصور الاوائل
ترى الناس أفواجا يؤمون بابه وكلهم ما بين راض وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه مخافـة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالما أقصى حياة معمر فأنت غياث كل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب الى درب قسطنطين أو أرض بابل

طرفة من أخبار الناصر

مع ابن شهيد (١)

ذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد احمد بن عبد الملك الوزير، أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال لابن شهيد: «أنى لك هذا؟» فقال «هو من عند الله» فقال له الناصر: «تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر؟» فاستعذر واحتفل فى هدية بعثها مع الغلام وقال «يا بنى كن مع جملة ما بعثت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسى» وكتب معه هذين البيتين:

أمولاى هـذا البدر سار لافقكم
وللأفق أولى بالبدور من الأرض
فأرضيكم بالنفس وهى نفيسـة
ولم أر قبلى من بمهجته يرضى

---

(١) تجد ترجمته وطرفا من أخباره الممتعة فى الجزء الأول من كتاب نفح الطيب من (ص ٢٢٩-٢٣٣) وفى ص ٢٤٦ و٢٤٧

فحسن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل وتمكنت عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أهديت اليه جارية من أجمل نساء الدنيا فخاف أن ينهى ذلك الى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى وبعثها معها، وكتب له هذه الأبيات:

امولاى هذى الشمس والبدر اولا
تقدم، كيما يلتقى القمران
قران لعمرى بالسعادة ناطق
فدم منهما فى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث
وما لك فى تلك البرية ثان

فتضاعفت مكانته عنده، ثم إن أحد الوشاة رفع الملك أنه بقى فى نفسه من الغلام حزازة وأنه لايزال يذكره حين تحركه الشمول ويقرع السن على تعذر الوصول، فقال للواشى بذلك: «لاتحرك لسانك والا طار رأسك» واعمل الناصر حيلة فى أن كتب على لسان الغلام رقعة منها: «يامولاى تعلم أنك كنت لى على انفراد ولم أزل معك فى نعيم وانى وان

كنت عند الخليفة مشاركا فى المنزل له ، محاذر مايبدو منه من سطوة الملك ، فتحيل فى استدعائى منه » وبعثها مع غلام صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان وأن الملك لم يكلمه قط ، ان سأله عن ذلك ، فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم فعلم فى سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام وما تكلم به فى مجالس المدام ، كتب على ظهر الرقعة ، ولم يزد حرفا :

أمن بعد احكام التجارب تبتغى

لدى سقوط الطير فى غابة الأسد ؟

وما أنا ممن يغلب الحب قلبه

ولا جاهل ما يدعيه اولو الحسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد الى استماع واش به ، ودخل عليه بعد ذلك فقال له « كيف خلصت من الشرك » فقال : « لأن عقلى بالهوى غير مشترك » فأنعم عليه وازدادت محبته عنده ا . هـ

سطوة الدين في زمنه

وكان الناصر مع قوته وصرامته، يخاف الفقهاء ويداريهم أحيانا، وقد أظهر شيئا من ضعف العزيمة أمامهم في غير مرة، ولقد جبهه القاضي منذر بن سعيد، في أوقات مختلفة، لمناسبات عدة، فاحتمله، ولم يجرؤ على الاقتصاص منه

— ١ —

فمن ماذلك ماحكوه عن ابن سعيد البلوطي هذا [١]، حين دخل على الناصر مرة، وهو في قبة جعل قرمدها من ذهب وفضة واحتفل احتفالا ظن أنه لم يصل اليه أحد من الملوك، فقام ابن سعيد خطيبا، والمجلس قد غص بأرباب الدولة، فتلا قوله تعالى: ,, ولولا أن يكون الناس أمة واحدة، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة، ومعارج عليها يظهرون ،، ثم أتبع الآية بما يليق بذلك:

(١) ذكرنا ترجمته في غير هذا المكان في ص (٢٠٩) فليرجع اليها من شاء

قالوا : « فوجم الملك ، ولم يسعه الا احتمال منذر لعظم قدره فى علمه ودينه »

— ٢ —

وكثيراً ما شدد النكير على الناصر ، لإسرافه فى بناء الزهراء ، وقد دخل عليه يوما وهو مكب على الاشتغال بالبناء ، فوعظه واشتد فى تأنيبه ، فأنشده الناصر معتذرا :

همم الملوك اذا أرادوا نشرها
من بعدهم ، فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا ، وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

— ٣ —

وحضر يوما فى الزهراء فانشد بعض الشعراء قصيدة للناصر ، منها :

سيشهد ما بقيت انك لم تكن
ضعيفا ، وقد مكنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج واطرق القاضى منذر هنيهة ثم أنشد:

يا بانى الزهراء مستغرقا
اوقاته فيها ، أما تمهل ؛
لله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبل ؛[1]

فاضطر الناصر الى مداراته ، وأجابه بقوله : ,, اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع فانها لا تذبل ،،

فقال منذر : ,, اللهم فاشهد أنى بثثت ما عندى ، ولم آل نصحا ! ،،

---

(١) ولا بأس من ذكر البيتين التاليين بهذه المناسبة، اللذين أنشدهما الوزير ابن جهور بعد تقويض ملك بني أمية فى الاندلس، حين وقف على قصورهم ، ورأى ذبول الزهراء :

قلت يوما لدار قوم تفانوا : « أين سكانك العزاز علينا ؟ »
فأجابت : « هنا» أقاموا قليلا ثم ساروا ، ولست أعلم أينا ! »

— ٤ —

وقد أظهر الناصر شيئاً كثيرا من ضعف العزيمة ، بعد انتصاره على الشقى ابن حفصون ، حين ألحف عليه الفقهاء الذين اتبعوه ؛ وسألوه أن يخرجوا رفات عمر بن حفصون وابنه من جدثهما ، فلم يستطع لكلامهم رداً ، وأذن لهم بذلك مضطراً ، فنبشوا أشلاءهما ، وبعثوا بها الى قرطبة حيث صلبت

عناية الناصر بتربية ابنه الحكم

وقد وجه الناصر عناية خاصة ، إلى تربية ابنه الحكم الثانى ، أكبر أولاده ، وولى عهده من بعده ، ولم يدخر وسعا فى تهذيبه واختيار صفوة من أدباء ذلك العصر وعلمائه لتثقيفه ، حتى انه استدعى أبا على القالى من بغداد لذلك ، فبلغ الحكم فى الرقى الفكري شأوا بعيد المدى

منافسة أخيه

وكان له أخ اسمه عبدالله ، وكان لايقل عنه كثيراً ، فى الفروسية والعلم والادب وسعة المدارك ، والتعمق فى دراسة الفقه والفلسفة والتاريخ وعلم الهيئة ، ومما استدلوا به على علمه أنه ألف بنفسه تاريخاً للعباسيين .

***

وكانت حوله بطانة سوء ، فأغرته بالعمل فى الخفاء على انتزاع الملك من أخيه ، ولى العهد ، وكان اكبر مشجع له على ذلك فقيه ما كر اسمه احمد بن عبد البر ، كان يطمح

إلى الحصول على منصب قاضى قضاة اسبانيا اذا نجح سعيه

قالوا : وكان أعز حميم للامير عبد الله ، رجل ذو قدرة خارقة للعادة يعرف بابن عبدالبر ، وكان يلازم الامير ملازمة شديدة ، حتى قيل انه لم يفارقه قط ، فكان يصاحبه فى غدواته وروحاته ، ويندر أن يرى عبد الله بغيره ، وكان هذا الرجل يكتم فى صدره مطامع وأغراضاً ، فكان يصانع من فوقه ، ويعتو على من دونه ، ويخفى تحت ثياب تنبىء عن الحشمة والوقار ، نفساً خبيثة ذات مكر ودهاء ، وعزم اكيد على القيام بمطالبها الخفية ، ، فخدع الامير عبدالله ، والقى فى روعه أن أشراف قرطبة والاقاليم يقدرون له ميزاته الكثيرة على أخيه الحكم ، ويساعدونه على الخلاص من ظلم أبيه متى هم بالمناوأة ، وشرع فى استرداد حقه المغتصب فى زعمه ، وامعن فى التغرير به فأوهمه أن ذلك العمل ناجح وأنه الوسيلة الوحيدة لسعادته وخيره وانه بذلك يضطر أباه إلى تسليم العرش اليه

فشل المؤامرة

فانخدع بذلك عبد الله ، وتمت المؤامرة على قتل الحكم وحددوا لتنفيذ ذلك، يوم عيد الاضحى الذى قرب ميعاده

ولكن أمرهم لم يلبث أن انفضح ، فقبض عليهم الناصر ، ووقف على نواياهم ، وامر بالفقيه المخادع الشيخ ابن عبد البر فسجن ، وحكم عليه بالاعدام ، وجعل انفاذه فى يوم عيد الاضحى أي اليوم الذى كان موعد تنفيذ جريمته ليقتص منه على فعلته الشنعاء ، ولكن ابن عبد البر قتل نفسه فى السجن فى ليلة ذلك اليوم ، لما علم بذلك ، وقال : „ بيدى لا بيد عمرو ،، وكان ذلك فى سنة ٣٣٨

وطلب الحكم العفو عن أخيه فلم يقبل الناصر ذلك وأنفذ فيه العدل مقتديا الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، ولما يئس الأمير عبد الله من عفو أبيه ، انتحر فى سجنه كذلك ، ودفن فى اليوم التالى

مثالان من شعر الناصر

— ١ —

ولعل أبدع ما رأيناه من شعره قوله :

لا يضير الصغير حدثان سن ‏ ‏ إنما الشأن في سمو الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم ‏ ‏ لم تنله بالركض كف مغير

— ٢ —

وقوله ، وهو تحليل نفسي :

ما كل شيء فقدت إلا ‏ ‏ عوضني الله منه شيا
إني اذا ما منعت خيري ‏ ‏ تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليه ‏ ‏ فانها نعمة عليا

الحكم الثانى [1]

٣٥٠ - ٣٦٦ هـ

لم يل حكم الاندلس أمير عالم كهذا الامير من قبل ، وان اسلافه - على ارتفاع مواهبهم العلمية ، وعلى ما كان فيهم من الرغبة فى إغناء مكاتبهم - لم يصل بهم الشغف باقتناء الكتب النادرة النفيسة الى هذا الحد الذى وصل اليه هيام الحكم

ففى القاهرة وبغداد ، وفى دمشق والاسكندرية ، كان له عملاء ، مكلفون بنسخ الكتب الحديثة والقديمة وشرائها له ، بالغا ما بلغ ثمنها ، حتى امتلأ بها قصره واصبح مصنعا لا تكاد تقع العين فيه على غير العاملين من نساخى الكتب ومغلفيها [2] وقد بلغ فهرست مكتبته وحده

(١) معربة عن كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزى

(٢) قال ابن خلدون : « وجمع فى داره الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط والاجادة فى التجليد ، فأوفى في ذلك كله

اربعا واربعين كراسة (١) تتراوح اوراق الواحدة منها بين العشرين والخمسين، ولم يكن بها غير اسماء الكتب وحدها دون أن تتناول وصفها أو شرح شيء من محتوياتها

ويقول بعض المؤرخين ان عدد الكتب بلغ اربعمائة الف كتاب قرأها الحكم كلها، ولم يقتصر على ذلك بل عاق على اكثرها، فكان يكتب على اول الكتاب أو آخره اسم المؤلف ولقبه وجنسيته وقبيلته وتاريخ ميلاده ويوم

واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده، الا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستفيء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع اكثرها في حصار البربر »

(١) قالوا : « وكان محبا للعلوم مكرما لاهلها، جماعة للكتب فى انواعها، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله »

وقد روى محمد بن حزم : « ان عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها الا أسماء الدواوين لا غير

فأقام العلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضائعه من كل مكان »

وفاته وما يعزى اليه من الطرف والنوادر [1] وكانت تعليقاته ثمينه

وكان الحكم لا يجارى فى تاريخ الأدب، وكانت مذكراته ذات خطر بين علماء الاندلس، وقد لاقت رواجا عظيما

وكثيراً ما كانت تنتهى اليه مؤلفات الفرس وسوريا قبل أن يقرأها أحد في الشرق

ولم يكد يبلغه ان أبا الفرج الاصفهاني، عالم العراق، يشتغل بوضع مذكرات عن شعراء العرب ومغنيهم، حتى

---

(١) قالوا: « وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي باذلا فيها ما أمكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها، قد آثر ذلك على لذات الملوك، فاستوسع علمه، ودق نظره وجمت استفادته، وكان في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوذيا نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله »

قال ابن الأبار. « وقلما وجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده، لعنايته بهذا الشأن »

ارسل اليه الف قطعة من الذهب ، راجيا إياه أن يبعث اليه بنسخة من كتابه ، عقب فراغه من تأليفه (١)

ومن ثم امتلأ قلب أبى الفرج الاصفهانى شكراً وعرفانا لصنيعه ، وأسرع فى تلبية رغبته ، فارسل اليه نسخة مضبوطة ، شفعها بقصيدة عدد فيها مآثر الأمير ، ومؤلف فى أنساب الامويين ، وتلك هدية جديدة نال جزاءها

***

وجملة القول أن نعم الحكم على العلماء ، من أجانب ووطنيين ، لم تقف عند حد ، فازدحم بهم بلاطه ، وقد شجعهم وشملهم جميعا بحمايته ، ومنهم الفلاسفة الذين استطاعوا بفضل

---

(١) قال ابن خلدون : « وكان يبعث فى الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ، ويسرب اليهم الاموال اشرائها ، حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه ، وبعث فى كتاب الاغانى الى مصنفه أبى الفرج الاصفهاني ، وكان نسبه فى بني أمية ، وأرسل اليه فيه الف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرجه بالعراق

وكذلك فعل مع القاضي أبى بكر الأبهرى المالكى في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك »

تلك الحماية أن يتفرغوا لفلسفتهم غير خائفين عنت المتنطعين في الدين

* * *

ولقد أزهر كل فرع من فروع العلم في عهد هذا الأمير العالم ، فتعددت المدارس الأولية المنتجة ، وأصبح كل أهل الاندلس تقريبا يقرؤون ويكتبون ، على حين كانت أرفع الطبقات في اوروبا المسيحية جاهلة ، اذا استثنينا رجال الكهنوت

وعنى بتدريس علم النحو والبيان في المدارس ، وكان الحكم بعد كل ذلك يرى أن العلم لما يبلغ الدرجة التي يصبو اليها من الذيوع والانتشار ، فدفعته عنايته بتهذيب الطبقات الفقيرة إلى انشاء سبع وعشرين مدرسة في العاصمة كان ينفق على معلميها ، ويتلقى فيها الفقراء دروس التربية والتهذيب بغير أجر . ا. هـ »

حروب الحكم

لما مات الناصر، وتولى الخلافة بعده ولى عهده الحكم، طمع الجلالقة فيه أول حكمه، ولكنه أسرع بغزوهم وقمعهم، فقبعوا مستذلين، ثم عظمت فتوحات الحكم فى كثير من النواحى، وكثرت غنائمه فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث

وفي سنة ٣٥٤ حارب المجوس المعتدين وقهرهم ونالت منهم عساكره فى كل جهة من الساحل، ومما ساعده على المحافظة على ملكه، انقسام امراء النصارى على أنفسهم. وقد واصل العمل على اتساع ملكه فنجح وبث دعوته فى المغرب الاقصى والأوسط فنجحت وزاحمت دعوة الشيعة[1].

(١) قال ابن خلدون: « فأوطأ العساكر أرض العدوة، من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقي دعوته ملوك زناته ومغراوة ومكناسة فبثها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما يليهم، ووفد عليه ملوكهم فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم »

تشدده فى محاربة الخمر

وقد بذل وسعه في ابطال الخمر فى مملكته ، وكان قدوصل به بغضها الى حد أن هم باستئصال شجر العنب من الاندلس ، فلم يثن عن عزمه الا بعد أن أخبروه أن الخمر قد تعصر من غير العنب كذلك

مثالان من شعره

ونكتفى من شعره بالمثالين التاليين ، فأولهما قوله :

الى الله اشكو من شمائل مترف
على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه داري فاستزاد صدوده
واني على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ
من الوجد ما بلغته لم اكن بنت

وثانيهما قوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دما

ويا كبدي الحرى عليها تقطعي

الموشحات فى الأندلس

« وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية . استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطا أسماطا . وأغصانا أغصانا ، ويكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عند قوافى تلك الأغصان ، متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ماتنتهى عندهم الى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد ، وتجاوزوا فى ذلك الى الغاية ، واستظرفه الناس جملة ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقه

وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس ، مقدم بن معافر الفريرى ، من شعراء الامير عبد الله بن محمد المروانى [١] وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله احمد بن عبد ربه [٢] صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت

---

(١) ارجع الى ترجمته فى ص (١٨٣) (٢) كان معاصرا للناصر

موشحاتها ، فكان اول من برع فى هذا الشأن ، عبادة ابن القزاز شاعر المعتصم بن صمادح[1] صاحب المرية[2] اهـ »

* * *

ونحن نختار لحضراتكم بضع أمثلة من أعلى نماذج الموشحات ، مجتزئين بالقليل ، لثقتنا أن أغلب حضراتكم قد اطلع على الكثير منها :

نماذج من الموشحات

فمن أحسن النماذج التى نختارها موشحة لسان الدين ابن الخطيب المشهورة[3] ، وهى قوله :

جادكَ الغيثُ اذا الغيثُ هَمَى ... يا زمانَ الوصلِ بالاندلسِ
لم يكنْ وصلكَ الا حُلُما ... فى الكرى أو خلسةَ المختلسِ

* * *

اذ يقودُ الدهرُ أسبابَ المُنى ... تنقلُ الخطوَ على ما نرسمُ
زمراً بين فرادَى وثنى ... مثلُ ما يدعو الوفودُ الموسمُ
والحيا قد جلل الروضَ سنى ... فسنا الازهارُ فيه يبسمُ

---

(١) كان معاصراً للمعتمد (٢) مقدمة ابن خلدون
(٣) وقد عارض بها موشحة ابن سهل

وروى النعمانَ عن ماء السما　　كيفَ يروى مالكٌ عن أنَسِ
فكساه الحسنُ ثوباً مُعلَمَا　　يزدهى منه بأبهى ملبس

* * *

في ليالٍ كتمت سرَّ الهوى　　بالدجي، لولا شموسُ الغرَرِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهوى　　مستقيمُ السيرِ سعدَ الأثرِ
وطرٌ مافيه من عيبٍ، سوى　　انه مرَّ كلمحِ البصرِ
حين لذَّ النومُ منا، أو كما　　هجمَ الصبحُ هجومُ الحرسِ
غارت الشهبُ بنا، أو ربما　　أثَّرتْ فينا عيونُ النرجسِ

* * *

أي شيء لامرىء قد خلصا　　فيكون الروض قد كُنّ (١) فيه
تنهب الازهار فيه الفرصا　　أمنت من مكره ما نتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا　　وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الود غيور ندما　　يكتسى من غيظه مايكتسى
وترى الآس لبيبا فهما　　يسرق السمع بأذني فرس

* * *

يا أهيلَ الحي من وادى الغضى　　وبقلبي سكنٌ أنتم به

---

(١) استتر

ضاق عن وجدى بكم رحبُ الفضا لا أبالى شرقه من غربِه
فأعيدوا عهدَ أنسٍ قد مضى تنقذوا عانيكم من كَربِه
واتقوا الله ، وأحيوا مغرمًا يتلاشى نَفَسًا فى نَفَس
حبسَ القلبَ عليكم كرمَا أفترضون عفاءَ الحَبَس ؟

* * *

وبقاي فيكم مقترب بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به ، وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة ، معسول اللمى جال فى النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى بفؤادى نهبة المفترس

ولعل أبدع ما فى هذا الموشح قوله بعد ذلك :

ان يكن جار وخاب الامل
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول
ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل
فى ضلوع قد براها وقلوب

حكم اللحظ بها فاحتكما

لم يراقب فى ضعاف الأنفس

ينصف المظلوم ممن ظلما

ويجازى البر منها والمسى

* * *

وقد أبدع ابو بكر الابيض الوشاح فى قوله من موشحة له :

ما لذلى شرب راح — على رياض الاقاح

لولا هضيم الوشاح — إذا أسى فى الصباح

أو فى الاصيل — أضحى يقول

ما للشمول ؟ — لطمت خدى

وللشمال — هبت فمال

غصن اعتدال — ضمه بردى

مما أباد القلوب — يمشى لنا مستريبا

يا لحظه رد نوبا — ويا لماه الشنيبا

برد غليل — صب عليل

لا يستحيل — فيه عن عهد

ولا يزال في كل حال

يرجو الوصال وهو في الصد

واليكم مثلا ثالثا من أجمل الموشحات وهو قول بعضهم

ما للموله من سكره لا يفيق

يا له سكرانا !

من غير خمر ما للكئيب المشوق

يندب الأوطانا

هل تستعاد أيامنا بالخليج

وليالينا

أو يستفاد من النسيم الأريج

مسك دارينا

واد يكاد حسن المكان البهيج

أن يحيينا

ونهر يظله دوح عليه أنيق

مورق فينان

والماء يجرى وعائم وغريق

من جنى الريحان

ومن أبدع موشحات عبادة، القزاز، موشحته التى فيها قوله :

لا جـرم من لحـا قد عشقا قد حرم !

* * *

ومما لا بأس باختياره من الموشحات، قول التلمسانى من موشحة له :

يا مذيبا مهجتى كمدا فقت فى الحسن البدور مدى
يا كحيلا كحله اعتمـدا عجبا ان تبرىء الرمدا
وبسقم الناظرين كسى جفنك السحار وانكسرا

وقول الشيخ أثير الدين أبى حيان، من موشحة له :

إن كان ليل داج وخاننا الاصباح
فنورها الوهاج يغنى عن المصباح

* * *

سـلافة تبـدو كالكوكب الأزهر
مزاجهـا شهد وعرفها عنبر
وحبـذا الورد منها وان أسكر

وفيها يقول فى وصف حبيبه

بلحظه المرهف يسطو على الأسد

* * *

كسطوة الحجاج　　في الناس والسفاح

فما ترى من ناج　　من لحظه السفاح　الخ

وقول بعضهم :

هل يصح الأمان　　من شبيه البدر ؟

وهو مثل الزمان　　منتم للغـدر ؟

وهي معارضة للموشحة التي اولها :

ضاحك عن جمان　　سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان　　وحواه صدرى

* * *

ومن موشحات ابن بقي قوله :

ما ردني　لابس　ثوب الضنا الدارس

الاقـــر

في غصن　مائس　شعاعه عاكس

ضوء البصر　الخ

وقوله ايضاً :

خذ حديث الشوق عن نفسي

وعن　الدمع　الذي　همما

* * *

ما ترى شوقي قد وفدا

وهما دمعي واطردا

واغتدى قلبي عليك سدى؟

* * *

آه من ماء ومن قبس

بين طرفي والحشا جمعا!

بأبي ريم اذا سفرا

أطلعت ازراره قمرا

فاحذروه كلما نظرا

فبألحاظ الجفون قسي

أنا منها بعض من صرعا الخ

* * *

ومما نختاره من موشحة أبي الحسن المريني الجميلة قوله:

في نغمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم

أطال من لامني خلافه فظل في نصحه مليم

* * *

دعنى على منهج التصابي ما قام لى العذر بالشباب
ولا تطل فى المنى عتابى فلست أصغى الى عتاب
لا ترج ردى الى صوابي والكاس تفتر عن حباب

* * *

والغصن يبدى لنا انعطافه اذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافه واختال فى برده الرقيم

الى ان يقول :

لله عصر لنا تقضى بالسد [1] والمنبر البهيج

---

(١) السد هو من متنزهات قرطبة ، وقد اكثر شعراء الاندلس من ذكره فى اشعارهم ، ومن أبدع ما رأيناه لهم فى ذلك ، قول أبي شهاب المالقي ، يصف يوم راحة بهذا السد :

ويوم لنا بالسد ، لو رد عيشه
بعيشة أيام الزمان ، رددناه
بكرنا له ، والشمس في خدر شرقها
الى ان اجابت ، اذ دعا الغرب دعواه
قطعناه شدوا ، واغتباقا ونشوة
ورجع حديث ، لو رقي الميت أحياه !
على مثله من منزه تبتغي المنى
فلله ما أحلى وأبدع مرآه !

أرى ادكارى اليه فرضا وشوقه دائماً يهيج
فكم خلعنا عليه غمضاً وللصبا مسرح أريج

* * *

ورد أطال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لايديم!

شدتنا به الأرحا (١) والقت نثارها
علينا، فأصغينا له وقبلناه
لئن بان، انا بالأنين لفقده
وبالدمع في اثر الفراق حكيناه

(١) والارحا هي السد الذي يعنيه الشاعر

— ٢ —

مجالس الادب والغناء

وأثرها فى الشعر

قال حضرة الدكتور ضيف ، فى احدى محاضراته :

« وقد أثرت تلك المجالس في الاندلس تأثيراً عظيماً فى المعانى الشعرية ، بسبب ما أوجدته من التنافس الشديد بين الشعراء والادباء ، ولكن الغناء كان قاصراً على تلحين بضعة أشعار عربية مما قاله الشعراء المعاصرون أو المتقدمون ، بل انهم كثيراً ما كانوا يتغنون ببضع ابيات جاهلية أو أموية أو عباسية ، ولهذا السبب لم يتعد أثر الغناء زيادة انغام قليلة لا تختلف كثيراً عن سابقاتها في الشرق ! »

فالاستاذ يرى أن تلك المجالس أثرت فى المعانى الشعرية فهذبتها ولكنه يرى من الناحية الاخرى أنها لم تؤثر مطلقاً في طريقة نظم الشعر (أى فى أوزانه وقوافيه) .

***

فأما أن تلك المجالس قد أثرت فى المعانى الشعرية تأثيراً

عظيما ووصلت بها الى حد لم تكن لتبلغه لولاها ، وأما انها كانت سببا في التنافس بين الشعراء والادباء ، مما كان له اكبر الاثر في تهذيب الشعر وابتكار المعانى الجديدة وادخال كثير من الاساليب الرشيقة فيه ، فذلك ما لا يشك فيه أحد وحسبك آية على صدق ذلك ما نقله نيكلسون عن القزويني في كلامه عن مدينة شلب بالبرتغال ـ أن قاطنيها جميعاً إلا ماندر ـ كانوا يقرضون الشعر ويعاونون الأدب فلو مررت بفلاح واقف وراء محرثه وسألته أن ينشدك بضع أبيات لأجاب طلبتك على الفور مرتجلا في أى موضوع تطلب اليه الكلام فيه ، وهذا بلا شك من أكبر نتائج تلك المجالس التى كان لها الفضل في الوصول بالبلاد الى تلك المكانة العالية .

* * *

فأما أن أثر الغناء كان قاصراً على زيادة بضع أنغام فحسب ، وأما أن الغناء لم يكن له من أثر مطلقاً في طريقة نظم الشعر ، وأما أن الغناء كان مجرد لهو وطرب يقصد به صرف الوقت ، وأما ان الغناء لم يبعث الاندلسيين الى اختراع نوع جديد في الشعر يتضاءل بالقياس اليه ذلك الأثر الذى

أحدثته تلك المجالس فى المعانى الشعرية — رغم ما يبذاه من أهميته — فذلك ما نستميح الاستاذ العذر اذا خالفناه فيه وأظهرنا لحضرته اننا نؤمن بعكسه تماماً.

(فاننا نعتقد أن أثر الغناء ومجالس الغناء فى رقي المعانى الشعرية وتهذيبها، يتضاءل بجانب تحطيم اكبر قيد رزىء به الشعر العربي، وهو التقيد بمدة اوزان وقواف خاصة لايتخطاها أحد، ولا يجسر انسان على الانتقاض عليها، بل ولا يؤذن له أن يفكر فى ذلك — فلما شاع الغناء فى الاندلس وافتن أهلها فى التلاحين والغناء، استطاعوا ان يرفعوا عن عاتقهم ذلك النير الثقيل الذى سببه التقليد، وثم اهتدوا الى اختراع الموشحات) — كما سنبين ذلك فى حينه ونثبته بما نعده كافياً لاثباته، من البراهين التى اقتنعنا بصحتها — وليس يستطيع أن يقدر اهمية هذا التطور الذى نشأ عن اختراع الموشحات أو يتبين خطورته — الا من تتبع الحركة النقدية عند العرب وعرف أن التقليد الاعمى كان رائدها فى اغلب الاحايين وان شدة تفانيهم فى المحافظة على محاكاة من تقدمهم من العرب وتتبع أساليبهم فى التفكير — قد وصلت الى حد

يدعو الى الحيرة ـ ولعل اكبر نكبة أصابت الشعر العربي هى ذلك التقليد الذى سرى اليهم من اعتقادهم الفاسد بأن الفضل كل الفضل للمتقدم وان العرب الجاهليين قد وصلوا بالشعر الى درجة ليس بعدها غاية ، وان مهمة الشاعر منهم يجب أن تنحصر فى الاتيان بشعر يحاكي اشعارهم التى اتخذوها نماذج عالية بلغت أعلى درجات الكمال وتسامت عن متناول النقد ـ ولو شئنا الافاضة فى هذه النقطة ، التى نراها من ألزم اللوازم لايفاء موضوعنا الفصل ـ ولكنا نكتفى بنظرة اجمالية سريعة ، لنتبين منها الحد الذى وصل اليه تعنت النقاد وتضييقهم على الشعراء ، والطرق التى لجأ اليها بعض من حاول التجديد من الشعراء ، فاذا انتهينا من ذلك شرعنا فى اثبات ما طالبه منا الاستاذ ضيف ، وهو البرهنة على أن الموشحات كانت نتيجة الغناء ، ثم نختم هذا الفصل بكلمة جامعة نقتطفها للعلامة ابن خلدون تعد بمثابة تاريخ موجز للغناء ، حتى يسهل علينا ان نلم بصورة واضحة لمحتويات هذا الفصل

— ٣ —

تعنت النقاد

ان من يتبع الحركة النقدية عند العرب يجدها كانت غالبا - ان لم نقل دائما - ترمى الى التحكم فى أذواق الشعراء ووضع قوانين صارمة وقيود شديدة كانت السبب الاكبر فى الوقوف بالشعر العربى، وهو فى بدايته، عند الغاية التى وصل اليها العرب الأقدمون - ولقد استبد فقهاء النقاد بأذواق الشعراء فأبوا عليهم أن يخرجوا على أوضاع من سبقهم، وبلغ من تهوس بعضهم أنه حاول حصر أبواب الشعر - ووضع قواعد وقوانين للغزل والحماس والهجاء، الي آخر ذلك من التعنت الشديد الذي ساقهم اليه تغاليهم في تقليد المتقدمين

وليست أغلب العيوب التى عدوها من أكبر نقائص النظم - الا تحررا من ذلك السجن الضيق الذى حصرهم فيه جماعة النقاد الجامدين - وكأن تلك الفترة التى شغلت العرب عن قول الشعر - في عصر ابتداء الاسلام - لانشغالهم بما هو أعظم من الشعر، كانت أساسا لذلك التقليد الذى بدأ منذ ذلك الحين، عقب انتهاء تلك المشاغل، وأخذ ينمو ويزداد حتى

بلغ أشده فى العصور المتأخرة

على أن كل زمن لا يخلو من نفوس حرة منتقضة على القيود فلا عجب اذن أن نرى في تلك العصور افذاذا قلائل جدا ـ حاولوا الخروج على التقاليد القديمة فى الشعر ، بكل وسيلة ممكنة ـ ومن جملة الوسائل التى لجأ اليها الكثيرون منهم نسبة القصائد والمقطعات الى من سبقهم . فقد كان أحدهم ينحل الأوائل ـ بعض الاوضاع[1] التى يخترعها ـ وبذلك يأمن اعتراض النقاد الذين كان يكفيهم للبرهنة على صحة الشيء ، أن يستشهدوا بمثل واحد من شعر الجاهليين ـ وكأنى باحدهم وقد مل الطريقة العتيقة التى اتبعت فى نظم الشعر ، فحاول ادخال تحوير قليل فى أوضاعها ، فلم تساعده روح العصر على تقبله ـ ووقف جمود النقاد حائلا بينه وبين اقرار ما جاء به ـ فلجأ الى كبير من شعراء الجاهليين هو

---

(١) وكانوا كثيراً ماينحلون الاوائل ابياتاً من الشعر بقصد تأييد قاعدة نحوية جديدة رغبة في التخلص من عنت فقهاء النحو ـ وربما لجأ بعضهم الى هذه الطريقة ليظهر بمظهر الملم بعدد كبير من قصائد الجاهليين

امرؤ القيس، فنحله الأبيات التالية، واطلق عليها اسم الشعر المسمط، وادعى أنه عثر بها عرضا، وهى

توهمت من هند معالم اطلال

عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى

٭٭٭

مرابع من هند خلت ومصائف

يصيح بمغناها صدى وعوازف

وغيرها هوج الرياح العواصف

وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحم من نوء السماكين هطال

وهذه أبيات لا يتردد انسان له ذوق أدبي فى أن يشك في نسبتها لامرئ القيس على الأقل - بل ربما جزم بانها ليست له وهو ما نذهب اليه، لظهور الصنعة والتكلف فيها وبعدها الشديد عن أسلوبه الذي كاد يمتاز به عن سواه من الشعراء (١).

---

(١) وقد ذكر المعرى فى رسالة الغفران (جـ ١ ص ١٠٩) مناقشة خيالية ممتعة بين امرىء القيس وابن القارح، تتصل فيها لأول من نسبة تسميط آخر، دسه عليه بعض

*
* *

وربما لجأ بعضهم الى الغناء فاستعان بسلطانه القاهر على النفوس، واتخذ من النغم الساحر عونا له على ادخال تحوير آخر في نظم الشعر رغم أنف النقاد الجامدين - ومن هذه الفئة سلم الخاسر المغنى النابه، حين قال في مدح موسى الهادى

موسى المطر غيث بكر
ثم انهمر ألوى المرر
كم اعتسر ثم ايتسر
وكم قدر ثم غفر
عدل السير باقى الأثر
خير وشر نفع وضر
خير البشر فرع مضر

الرواة، وقد جاء فيه :

يا قوم ان الهوى اذا أصاب الفتى
في القلب، ثم ارتقى فهد بعض القوى
فقد هوى الرجل

بدر بدر والمفتخـــــر

لمن غبر

*
* *

ويسمون هـذا النوع من الشعر ـ المقطع ـ وسمى كـذلك لأنه مقتطع من الرجز الذى قالته العرب ووزنه كما تعلمون (مستفعلن مستفعلن مستفعلن)، ثم تفنن العرب القدماء فيه فاقتصر بعضهم على جزأين منها كقول دريد ابن الصمة يوم هوزان

يا ليتنى كنت جذع أخب فيها وأضع

فكان من الطبيعي أن يسير سلم الخاسر فى هذه الطريق الى آخرها وأن يقتصر على جزء واحد من أجزاء الرجز الثلاثة وهو «مستفعلن» ولكن النقاد كما قلنا لم يكونوا ميالين الى التجديد ـ مهما كان طبيعيا ـ لذلك استعان سلم الخاسر على ترويج هـذا الوضع بقوة تأثير الغناء ـ ثم تبعه غيره فنظم أرجوزة من هذا النوع، فقال :

طيف ألم بذى سـلم بعد العتم يطوى الأكم الخ

*
* *

ولا يفوتنا أن نختم هذا الفصل بمثل واحد من أمثلة عديدة يعيينا استقصاؤها ـ للاستدلال على تنطع بعض النقاد وتشبثهم بالقديم ـ وربما تبينتم منه السر فى تأخر الزمن الذى اخترعت فيه الموشحات عن حينه بسبب اضطهاد النقاد لكل فكرة مستحدثة وعدم فهم الأكثرية منهم للغرض الأسمى الذى يرمى اليه الشعر

— ٤ —

ابن رشيق والتجديد [1]

فمن أدلة سخطهم على الجديد — لا لسبب سوى جدته وحدها — ما نورده على حضراتكم من قول ابن رشيق من كلام طويل نقتطف لكم منه القطعة التالية :

« وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ويكثرون منها

---

(١) ابن رشيق القيرواني

المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

اسمه الحسن ابن رشيق وكنيته أبو العباس، وموطنه القيروان وأصل أبيه مملوك رومى من موالي الأزد كان صائغا في بلدة المحمدية ، فعلمه أبوه صنعته

شغف ابن رشيق بالأدب فرحل الى القيروان واتصل بخدمة صاحبها ، وهلاشأنه بها

ولما خربها العرب ، انتقل الي صقلية وأقام بمازر الى أن مات

وهو مؤلف كتاب العمدة الذي يعد بحق من أنفس الكتب العربية — وابن رشيق من اقرب النقاد الي الاعتدال والحرية وابعدهم عن التقليد

ولم أر متقدما حاذقا صنع شيئا منها، لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه

ما خلا أمرأ القيس في القصيدة التى نسبت اليه [1] وما اصححها له »

* * *

أى والله! هكذا فليكن النقد الصائب! وهكذا فليكن التنطع والتشبث بأذيال القدماء والبعد عن فهم الغاية السامية التى خلق الشعر من أجلها! لم ير ابن رشيق متقدما صنع شيئا من المخمسات والمسمطات. وهذا وحده سبب كاف عنده للسخط عليها والحط من قيمتها والاقتناع بعدم صلاحيتها، فعيبها كل عيبها فى نظر هذا الناقد الفذ هو أن الأوائل القادرين الذين جعل الله النبوغ وصواب النظر ووفور العقل وقفا عليهم — لم يخترعوا شيئا من هذه الاوضاع — ولو أنهم سبقوا الى اختراعها لحسنت ولما تردد ابن رشيق فى قبولها والاعتراف بمزاياها الجليلة

وأغرب من ذلك أن هذا الناقد الكبير لا يستحى

(١) هي التي ذكرنا بعضها في (ص ٢٥١)

أن يصرح في كتابه ان من اكبر أسباب سخطه على هذه الاوضاع الجميلة التى نعـدها خطوة فى سبيل رقى الشعر وتدرجه فى طريق الكمال ـ انها تدل على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه ! ! ! ـ اذن فالشعر فى نظره هو نوع من المباهاة والاقتدار على صيد القوافي الشاردة ـ وليس مجالا لشرح الخوالج التي يزيدها وضوحاً قـلة القيود فى النظم ؟ ؟ ـ ولكن حذار ان ننسى أن امرأ القيس يشذ عن هذه القاعدة فى نظر ابن رشيق واضرابه ـ لأنه يرتاب فى نسبة تلك القصيدة اليه ـ ولو أنه تحقق من انه قائلها لكان له شأن آخر في استحسانها، ولما صعب عليه أن يتلمس فيها مزايا أخرى ـ لا يصعب علينا أن نتكهن بها ـ تسيغ له قبول هذا النوع

واذا وصل ابن رشيق الى هذا الحد من التنطع مع ما اشتهر به من التبحر فى النقد وسعة الاطلاع على كلام العرب ، ومع ما نعرفه من أن اباه مملوك رومى من موالى الازد، وهو ما يجعله أقـل من غيره تعصباً لآراء العرب القدماء ـ فما ظنك بالحد الذى يصل اليه تنطع سواه من

النقاد الجامدين الذين وصل العمى ببعضهم الى حد أن يسمع البيتين من الشعر فينطلق لسانه بمدحهما والثناء عليهما، ثم لا يكاد يسأل عن قائلهما فيجدهما لصاحبه، حتى ينتقض على حكمه في الحال، ولا يستحي أن يقول له: «أي والله إن أثر التكلف فيهما لظاهر»[1]

---

(١) انظر الى شكوى ابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦) وهو من احرار نقاد المشارقة ونابغيهم، ومن اساطين نقاد بغداد – من الطريقة التقليدية التي يسير عليها نقاد العرب. قال: «فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره – ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ورأى قائله – ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل الله كل قديم منهم حديثاً في عصره وكل شريف خارجياً في أوله

فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: «لقد نبغ هذا المحدث وحسن، حتى لقد هممت بروايته» ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخزيمي والعتابي والحسن ابن هانيء

— ٥ —

سلطان الغناء

واذا وصل تعنت النقاد فى الشرق الى هذا الحد، وذكرنا ما بيناه من قبل فى احدى المحاضرات السابقة من اندفاع الاندلسيين فى تقليد الشرقيين الذين اتخذوا — هم الآخرون — بلاغة العرب الأقدمين نموذجاً عالياً لا يقبل التحوير ولا يخضع لقانون النقد — فقد يسهل علينا اذا استوعبنا ذلك أن نتصور بسهولة أن جمود النقاد فى الاندلس لم يكن ليقل عن جمود النقاد فى الشرق، بل ربما زاد — واذن فكيف نعلل اختراع الموشحات فى الاندلس مع ما بيناه من تعنت النقاد؟ وكيف تقبلها الوسط الذى كان متأثراً بآراء النقاد الجامدين؟؟

فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا عليه به، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما ان الردىء اذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف، لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه» ا. هـ

ان نظرة واحـدة نلقى بها الى سلطان الغناء القاهر الذى تغلب على نفوذ النقاد وتعنتهم، فيها الجواب الصادق عن هذا السؤال . فقد استعان الاندلسيون بسلطان الغناء وقوة النغم الساحر على ارغام النقاد الجامدين على قبول تلك الانواع الجديدة التى طالما عارضوها بكل شدة

* * *

رأيتم فى احدى المحاضرات السابقة الى أى حد وصل تقديس الاندلسيين لزرياب الموسيقى وكيف أنهم رفعوه الى مكانة ليس بعدها زيادة لمستزيد [1] حتى وصل :

الى منزل يشتاقه كل سيد ويقصر عن ادراكه المتناول

وقد استنتجنا من ذلك فى حينه ، استنتاجين مهمين ، أحدهما وهو الخاص بموضوع هـذا الفصل ؛ هو شغف الاندلسيين وافتتانهم بالغناء الى حد لا نغالى اذا قلنا إنه ربما زاد على افتتان الغربيين به فى هذه الايام

ولا جرم ان ولوع الانسان بالغناء أمر طبيعى لا يستطيع أن يتخلص منه الا من أوتى جبلة غير جبلة البشر ، بل إن

(١) ارجع الى ص (١١٣ ـ ١٢٠)

بعض الحيوانات يتأثر به كالجمل والحصان مثلا — بل زعم بعض المتغالين جداً من العلماء المعاصرين لنا فى امريكا أن الجماد ايضاً قد يتأثر به . فاذا ماوجد الجمهور اقبالا من الملوك على هذا الفن وتنشيطالذويه — فانه بما فيه من حب طبيعى للغناء ، وبما فيه من تقليد أعمى لما يحبذه الملوك — حتى ولو كان مخالفاً لطباعه — يندفع فى تحبيذه اندفاعاً لا مثيل له !

فاذا زدنا على ذلك ما كان بين الغرب والشرق من المنافسة فى كل شيء تقريباً ، ثم ذكرنا ايضاً أن زرياب كان تلميذ الاستاذ النابغ اسحق الموصلى وان اسحق هذا قد رأى فيه منافساً خطراً فهدده بالوعيد مرة وأغراه باللين أخرى ليغادر الشرق الى بلاد الاندلس — لما رآه من اقبال الخليفة العباسى عليه ، فكان لذلك اكبر الاثر فى نفس زرياب الطموحة ، فسعى للتفوق على استاذه ، وساعدته الفرصة التى أتاحت له منافسته فى بلاد الغرب . واذا ذكرنا ما لقيه زرياب من ضروب التشجيع الذى لم يكن يحلم به من قبل ، ومن الهيمنة التامة على الاذواق ، والتصرف فى نفوس الناس كما يشاء — ثم أضفنا الى ذلك نبوغه واستعداده العظيم للتفوق فى هذا

على كل معاصريه فى الشرق والغرب ـ وذكرنا بجانب ذلك مافى طبيعة الاندلسيين من حب الغناء بسبب موقع اقليمهم النادر ـ نقول ـ

اذا وعينا كل هذه الاعتبارات لم نستغرب قط ماوصل اليه سلطان الغناء على النفوس في بلاد الاندلس ـ ولم يدهشنا مانراه من انتشار مجالس الغناء فى كل جهة من جهاتها حتى أصبح شغف الفلاح به وهو وراء المحراث لا يقل عن ولع الامراء به بين الموالى والدساتين

*
* *

ومتى أقررنا ذلك فقد أدركنا السر فى تلاشى سلطة النقاد الجامدين وضياع نفوذهم العظيم الذى طالما اتخذوه وسيلة للاستبداد باذواق الشعراء، ولم نستغرب السبب فى ضياع سلطانهم الذى تضاءل أمام سلطان الغناء القاهر الذى خضع الجميع لتأثيره حتى النقاد ـ ومن هنا يسهل علينا ادراك السبب فى اختراع الموشحات فى الاندلس

— ٦ —

أثر الغناء فى الشعر

الغناء هو السبب الأول فى اختراع الشعر

فلا عجب اذا كان هو السبب أيضاً فى اختراع الموشحات ؟

* *

يرى أكثر المؤرخين أن السبب الأول الذى دعا العرب الى نظم الشعر هو حداؤهم للابل. قالوا : « وكان العربى يغنى لتطرب ناقته، فيسهل عليها قطع المفازات الشاسعة واجتياز المهامه المترامية . وبدأ العرب بنظم عدة ابيات قصيرة تتفق اعاريضها وانغامها مع سير الابل وحدائها » واستدلوا على ذلك بعدة ابيات يطابق توقيعها سير الابل

وروى بعضهم أن السبب الاول فى نظم الشعر هو أن مضر بن نزار بن معد سقط عن بعيره فانكسرت يده فجعل يقول « يايداه . يايداه » وكان من أحسن الناس صوتاً . فاستوسقت الابل وطاب لها السير ـ قيل : « ولعل الهزات الاربع المتتابعة فى سير الناقة ارشدته الى ايقاع حدائه على

اجزاء رباعية فكان من الحداء الرجز وهو أول بحور الشعر . وما زالت الاوزان ترقى شيئا فشيئا »

„ وربما صاغوا الشعر أولا بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الأمثال الحكيمة ونحوها . والظاهر أنهم قضوا أجيالا والنظم عندهم على سبيل الامثال . حتى اتفق لبعضهم أن جعله شطرين مسجوعين فى مثل واحد أو مثلين متآلفين فرأى فى ذلك رنة ، فترنم به ، وأخذه عنه

الناس وجعلوا يتغنونه فى حدوهم وانشادهم وراء إبلهم ، والغناء

لسان طبيعى ، فأعجبتهم رنة القافية والوزن ، فزادوه شطراً وشطرين أو أكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز فى أبسط أحواله ، وظلوا دهرا طويلا يقول شاعرهم من الرجز البيتين أو الثلاثة . اذا هاجت به قريحة الشعر لمفاخرة أو مشاتمة أو منافرة . وكانوا كلما نبغ فيهم نابغة أدخل فى النظم تحسينا (١) „ ، حتى اذا جاء المهلهل قصد القصائد وجاء بعده امرؤ القيس فافتن فيها وأطالها وبلغت نهضة العرب أشدها فى الجاهلية فى أيام مهلهل وابن اخته امرىء القيس . وقد

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج (٣) ص (٢٣)

اهتدى بعض المستشرقين الى بعض أنغام العرب وشرحها فى محاضرة له، القاها فى نادي الموسيقى - فيما سمعت - على ملأ من ادباء مصر والفرنجة . وبين لهم طريقة انشاد العرب للشعر وتغنيهم به . ثم تطرق الى الكلام على معلقة امرىء القيس فصورها للحاضرين ، ثم أمر بها فغنتها على دساتينها فئة من الموسيقيين أعدها لهذا الغرض خاصة

ذلك ما رواه لى صديق أديب ، يجيد الغناء ويحسن التوقيع . وقد أكد لى أن جميع الحاضرين خرجوا مقتنعين بأن ذلك النغم كان بلا ريب النغم الذى تغنى به امرؤ القيس وغيره من الجاهليين لمشابهته التامة لحداء الابل ومطابقته لسيرها

وقد تمكن صديق - لحسن الحظ - من ضبط ذلك النغم وحفظه ، وأسمعنيه ، فاخذته عنه منذ ذلك الحين - ولا أكذبكم يا سادة أنه نغم لا يمالك الانسان نفسه - وقت سماعه - من الجزم بأنه لم يخلق إلا ليوقع على سير الابل وحدائها - وكثيرا ما تغنيت به لنفسي فخيل الي - رغم رداءة صوتي - أنني راكب جملا وانني أحدوه !

*
* *

وبعد، فأى ميزة للشعر على النثر الا ميزة الموسيقية التى يحدثها الوزن. والا ميزة الاتساق الذى تحدثه القافية ؟؟ وإلا فما هى الفائدة من وجود هذين القيدين فى الشعر، وقد تعلمون ما يتطلبانه من العناء والجهد، وما قد يجران اليه من تحوير بعض الأفكار التي أرادها الشاعر أو بتر بعض المعانى التى رام الافصاح عنها. مما لا يعزيه عنه إلا عرفانه بان النغم سيسد ذلك الفراغ، ويزيد على ذلك تلك الحلة البديعة التى يفرغها على الشعر — ذلك هو ما أفهمه من وجود تلك القيود الشديدة فى الشعر العربى. تلك القيود التى بدأ الاندلسيون بتحطيم بعضها — وآن لها أن تحطم جميعا وان تلقى بلا رحمة ولا شفقة — وأى انتفاع للانسان بالوزن والقافية اذا كان الغرض هو سرد الشعر بعد ذلك كما يسرد النثر ؟؟

— ٧ —

الشكوى من القافية

قد يعترض علينا أحدكم بأن النثر المسجع قد اخترعه العرب من غير أن يفكر واحد منهم فى أن يتغنى به . وهو اعتراض وجيه نقره على اهميته ، ولكنا نسأله أيضا : «وما الفائدة من تسجيعه اذن ؟ أليس ذلك اسرافا دعا اليه فضاء الوقت ؟ (١)

---

(١) وقد حل صديقى الاستاذ سيد افندى ابراهيم هذا الاعتراض على أبسط وجه فقال « كان الباعث الاول الذي دعا العرب الى نظام الشعر هو الغناء (حداء الابل) وبعد زمن طويل نسى ذلك الباعث واصبح الشعر معتبرا بنفسه دون نظر الى أصله ثم خطا العرب خطوة اخري فأنشأوا كلاما مقفى خاليا من الوزن وهو النثر المسجع ، وقد اكثر الكهان من استعماله ـ ولقد حاول بعض الشعراء فيما بعد أن يزيد قيودا جديدة على الشعر غير القيود الاولى ، فالتزم فيه مالا يلزم ومنهم ابو العلاء الذى تغالى في لزومياته في اتباع قيود سنها لنفسه والزمها بها . وهذا دليل على أن القيود الأولى التى كان الباعث اليها الغناء ، نسيت تماما

على أن الشكوى من القافية عامة فى أغلب العصور، وقد حاول بعض أفذاذ من العرب أن يتمردوا عليها فلم يفلحوا كثيرا في ترغيب الناس الى ذلك — ومن ذا الذى يدرى الى أى حد كانت تصل البلاغة العربية لو حطم ذلك القيد الثقيل (القافية) فى ابتداء الدولة الاموية مثلا ؟ — لا شك أن حدوث ذلك كان معناه فتح باب الرقي على مصراعيه وانفساح الشعر العربي للاغراض المختلفة التي انفسح لها اخوه الشعر الغربي فى هذه الأيام . ولكن القافية وحدها كانت من اكبر النكبات التى وقفت حائلا دون رقى الشعر العربى الى الحد الذى وصل اليه الشعر الغربى، كما أنها كانت سببا فى انقراض الشعر القصصى المطول الذى نجده فى لغات الغرب التى سلك أصحابها كل سبيل يؤدي الى تسهيل النظم — وهذا رأى يشاركنا فيه الكثيرون من أحرار المفكرين وانا

واعتبرت من مستلزمات الشعر بعد أن زال السبب الذى كانت لازمة من اجله — والا فأى فائدة في التزام هذه القيود الثقيلة حتى في شعر الفلسفة والحكم ؟ » وهو فى نظرنا تعليل وجيه لا نتردد كثيراً فى قبوله

موردون هنا بعض ماقيل فى هذا الصدد من السخط على القافية

قال الاديب البستانى من كلام طويل فى مقدمة الالياذة ص (١٠١):

«رب من ترجو به دفع الاذى عنك يأتيك الأذى من قبله»

« فقد يأتى الضر من حيث يرجى النفع . فان اتساع »

« القوافى فى اللغة العربية من جملة أسباب التضييق على »

« الشعراء . اذ مهما طال الشاعر باعا فلا يأتى على عدد »

« معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافى السائغة . »

« ولهذا كان من المستحيل نظم الالوف المؤلفة على قافية »

« واحدة . وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصى »

« فى العربية، واذا فرضنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال »

« فالاذن تمل توالى النغمة الواحدة لأطيب الالحان ا. هـ »

*
* *

وقال الاستاذ العقاد فى هذا الصدد ما نقتطف لكم منه ما يلى:

« ولا مكان للريب فى أن القيود الصناعية التى »

« أشرنا اليها ستجرى عليها أحكام التغيير والتنقيح فان »

« أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر »
« تفتحت مغالق نفسه وقرأ الشعر الغربي فرأى كيف »
« ترحب أوزانهم بالأقاصيص المطولة والمقاصد المختلفة »
« وكيف تلين في أيديهم القوالب الشعرية فيودعونها »
« ما لا قدرة لشاعر عربى على وضعه فى غير النثر . ألا يرى »
« القارىء كيف سهل على العامة نظم القصص المسهبة »
« والملاحم الضافيـة الصعبة فى قوافيهم المطلقة ؟ وليت »
« شعرى بم يفضل الشعر العامي الشعر الفصيح الا بمثل »
« هذه المزية ؟؟» الى أن قال «« وما كانت العرب تنكر القافية »
« المرسلة ، فقد كان شعراؤهم يتساهلون فى التزام القافية »
« كما في قول الشاعر :

الا هل ترى ان لم تكن أم مالك
بملك يدى ان الـكفاء قليل
رأى من رفيقيـه جفاء وغلظة
اذا قام يبتـاع القلوص ذميم
فقال : « أقلا واتركا الرحل اننى
بمهلـكة والعاقبات تدور »

فبيناه يشرى رحله قال قائل

لمن جمل رخو الملاط نجيب

وكقول غيره :

بنات وطاء على خد الليل لا يشتكين عملا ما أنقين

وقول الآخر :

جارية من ضبة بن أد كأنها في درعها المنعط الخ

وبعض هذه القوافي ، كما تراها ، قريبة مخارج الروى وبعضها تتباعد مخارجه . ولكنهم كانوا على حالة من البداوة والفطرة لا تسمح لغير الشعر الغنائي بالظهور والانتشار وكانوا لا يعانون مشقة في صوغ هذه الأشعار في قوالبهم فلم يلجأوا الى اطلاق القافية ، ولا سيما في شعر يعتمد في تأثيره على رنته الوسيقية ، وجاء العروضيون فعدوا ذلك عيبا وسموه تارة بالاكفاء وتارة بالاجازة أو الاجارة ، لقلة ما وجد منه في شعر العرب . فلما انتقلت اللغة العربية الى أقوام سلائقهم وحالهم أميل الى ضروب الشعر الاخرى اعتسروا القوافي على أداء أغراضهم ولم تشعر آذانهم بهذا الذى {يعده العروضيون عيبا في القافيـة . فاحتملت لغتهم

المحرفة وقوافيهم المتقاربة. ما لم تحتمله أوزان الجاهلية وقوافيها، على أن مراعاة القافية والنغمة الموسيقية فى غير الشعر المعروف عند الافرنج بشعر الغناء (Lyric) فضول وتقييد لا فائدة منه ا. هـ»

* * *

ومتى أقررنا ذلك فقد أدركنا اهمية اختراع الموشحات وعرفنا خطرها العظيم. واي خطر أجل واكبر نفعا من تحطيم ذلك القيد الذى رزىء به الشعر العربي؟.

* * *

وفى هذا الكفاية الآن فى الاستدلال على الشكوى من القافية، وعلى فضل الغناء وأثر مجالسه فى نظم الشعر نفسه وتحويرا وضاعه

- ٨ -

موشحة ابن المعتز (١)

ولو لم يخترع الاندلسيون هذا النـوع المسمى بالموشحات ، لاخترعه الشرقيون ، فقد كان حتما أن يؤدى الغناء ومجالسه فى الشرق ، الى نفس هذه النتيجة التى انتهى اليها فى الاندلس .

وفى موشحة ابن المعتز الرائعـة التى سنسردها على حضراتكم ، اكبر دليل على صحة ما نقول ، فقد انشأ ابن المعتز تلك الموشحة الفذة ، فى القرن الثالث الهجرى - أى

---

(١) ابن المعتز

ولد سنة ٢٤٩ - وتوفي سنة ٢٩٦ هـ

اسمه عبد الله بن المعتز ولقبه أبو العباس ، تحزب له جماعة من الأتراك وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ وبايعوا ابن المعتز وسموه المرتضى بالله ولـكنه لم يلبث في الخلافة الا يوماً وليلة ، فقد تحزب أصحاب المقتدر وتغلبوا على أعوان ابن المعتز وأعادوا المقتدر الى دسته ، فاختفى ابن المعتز في دار بعض التجار ، فقبض عليه وخنق من ليلته ودفن بخربه بجوار داره .

في نفس القرن الذي اخترع فيه مقدم بن معافر الفريرى موشحاته في الاندلس (١)

(١) كان مقدم بن معافر مخترع الموشحات في الاندلس من شعراء الامير عبد الله بن محمد ، أى كان معاصراً لابن المعتز ، وليس لدينا الآن ما نرجح به أسبقية احدهما عن الآخر في اختراع هذا الفن الجميل ، على أننا لا نستبعد أن تكون روح ذلك العصر التي أوحت الى احدهما بهذه الفكرة ، هي نفسها التي أوحت للآخر بها

فقد كان الاهتداء الي الموشحات أمراً طبيعياً ، ونتيجة لازمة لما يقتضيه تطور الغناء ورقيه ، ويتطلبه الافتنان فيه من زيادة الالحان وتنوعها ، وثم يزداد الشعور بنقص تلك الابحر المصطلح عليها، عن سد هذا الفراغ الشديد ، فيندفع الناس الى زيادة أوزان الشعر ولا يقفون به عند الحد الذى وقف عنده أسلافهم .

ونحن نرجو أن يساعدنا الوقت على تحقيق هذه النقطة الهامة وتمحيصها — رغم ندرة المصادر التي يرجع اليها في هذا الموضوع

* * *

ولعل أغرب ما نذكره بهذه المناسبة ، اغفال مؤرخي الآداب جميعاً ، ذكر هذه الموشحة التي قالها ابن المعتز ، كأن هذا الحادث

واليكم موشحة ابن المعتز :

أيها الساقي اليك المشتكى ! قد دعوناك وان لم تسمع !

* * *

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الكأس اليه ، واتكى وسقاني أربعا في أربع

الجليل ، الذى ترك أوضح أثر في البلاغة العربية ، أقل خطراً من اهتمام ابن المعتز بالمحسنات البديعية .

ماذا ؟ بل من ذلك البيت السخيف ، الذى لم يفت مؤرخاً منهم ، أن يستشهد به ، دليلا على ابداع ابن المعتز ، ولو أنصفوا ، لعدوه من هناته ، والبيت هو قوله :

وبدا الهلال كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر !

* * *

ومن نكد الدنيا على شاعر فحل كابن الرومي أن يلجئه العوز والفاقة الى مدح هذا البيت السخيف ، واكبار معناه التافه ، والتظاهر بالعجز التام عن محاكاة هذا التشبيه المتكلف ، تملقاً لقائله ، لسمو منزلته ، ورفعة جاهه !

*
* *

ما لعيني عشيت بالنظر ؟
أنكرت بعدك ضوء القمر
واذا ما شئت ، فاسمع خبري :
غشيت عيناي من طول البكا
وبكى بعضي على بعضي معي !

* * *

غصن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الاحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بكى
ويحه ! يبكي لما لم يقع !

*
* *

ليس لي صبر ، ولا لي جلد
يا لقومي عذلوا واجتهدوا !
أنكروا شكواي مما أجد
مثل حالي حقه أن يشتكي !
كمد اليأس ، وذل الطمع !

*
* *

كبد حرى ، ودمع يكف
يذرف الدمع ولا ينذرف
أيها المعرض عما أصف !
قد نما حبي بقلبي وزكا   لاتقل في الحب إني مدعى (١)

---

(١) وقد قلده ابن بقي في هذه الموشحة فقال :
غلب الشوق بقلبي فاشتكى   الم الوجد فابت ادمعى

* * *

أيها الناس فؤادي شغف
وهو من بغي الهوي لا ينصف
كم اداريه ودمعى يكف
أيها الشادن من علمكا   بسهام اللحظ قتل السبع

***

بدرتم تحت ليل أغطش
طالع في غصن بان منتش
أهيف القد بخد ارقش
ساحر الطرف وكم ذا فتكا   بقلوب الاسد بين الاضلع !

***

— ٩ —

كيف كان الغناء

سببا فى اختراع الموشحات

عرفنا أن الباعث الاول الذى دعا العرب الى قول

أي ريم رمته فاجتنبا
وانثني يهتز من سكر الصبا
كقضيب هزه ريح الصبا
قلت: هب لي يا حبيبي، صلكا واطرح أسباب هجري ودع

***

قال: خدى زهرة مذ فوفا
جردت عيناي سيفاً مرهفا
حذراً منه بان لا يقطفا
ان من رام جناه هلكا فازل عنك غلال الطمع

***

ذاب قلبي في هوى ظبي غرير
وجهه في الدجن صبح مستنير
وفؤادى بين كفيه أسير
لم أجد للصبر عنه مسلكا فانتصارى بانسكاب الادمع
ولكن شتان بين الموشحتين شتان!

الشعر هو الغناء وقلنا أنه اهمل بعد حين من الزمن مدة طويلة . ولكن لم يلبث العرب أن اختلطوا بالفرس حتى عاودهم الهيام بهذا الفن مرة اخرى ، ثم شاع الغناء فى الشعر ووصل تأثيره الى حد عظيم فى اواخر الدولة الاموية ، وما زال يزداد حتى وصل فى العصر العباسى الذهبى الى أقصاه ، وقد كان اكبر عامل على رقيه فى الاندلس زرياب الموسيقى تلميذ اسحق الموصلى الذى كان امام المغنيين فى الشرق . وقد وصل تأثير الغناء فى الشرق أيضا الى حد عظيم . وكثيرا ما لجأ اليه الناس فى احرج الاوقات عند الخلفاء فى الشرق ليأمنوا غضبهم فقد كانوا يلجئون الى القيان فينظمون المعنى ليغنينه للخليفة وهن بمأمن من غضبه لاحتمائهن بسلطان الغناء . انظروا كيف أن اعداء البرامكة لما اعيتهم الحيلة لجؤا الى التأثير على الرشيد بالغناء ، فلقنوا احدى قيانه هذين البيتين ، وهما من كلام ابن أبى ربيعة .

ليت هندا أنجزتنا ما تعد　　　وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة　　　انما العاجز من لا يستبد

وليس فى هذين البيتين معنى كبير ، ولا هما من خير

الشعر واروعه، بل هما عاديان جدا . ولم يكن تأثيرهما على الرشيد ليبلغ ذلك الحد، لولا الغناء وترجيع الاصوات مرارا، بحيث لا تنتهى القينة من غنائهما، حتى يكون معناهما قد تمكن من نفس الخليفة وأصبح مختلطا بلحمه ودمه لجلال الغناء ودقة تصويره وتجسيمه لأضأل المعانى وأحقرها، كما يجسم المجهر أصغر الاشياء لعين الرائي . وما انتهت القينة من اتمام غنائهما حتى قال الرشيد لنفسه ,, نعم اني عاجز . اني عاجز ،، وذكر سلطان البرامكة وقوة نفوذهم فكان ذلك سببا فى القضاء عليهم .

*
* *

ولما شاع فن الغناء فى الاندلس وعاد الشعر الى طريقته الطبيعية الأولى مل الناس تكرار الانغام التى نقلوها عن أسلافهم فتطلعوا الى ادخال بعض تحسينات على الشعر وأوضاعه وزادت حاجتهم الى رفع شيء من هذه القيود التى رزىء بها الشعر العربي . ولكن التقليد الذي أظهرنا لحضراتكم أثره الشديد فى نفوسهم ونظرهم الى العرب السابقين نظر التلميذ الى استاذه وقفا فى وجوههم زمنا

طويلا . ثم ماذا كان ؟ تغلبت طبيعة الرقى وسلطان الغناء على تلك العراقيل ، فاندفعوا بجرأة وقوة فى تحطيم اكبر قيد كان له أشنع الأثر فى تأخر الشعر العربي . نعنى به ذلك النظام الخاص الذى اتبعه أسلافهم فى طريقة النظم ، وهو أن يتقيدوا بخمسة عشر بحراً فلا يحيدون عنها ولا يتخطونها بحال ما ، وليس لهذا التطور العظيم من سبب سوى الغناء !

— ١٠ —

كانت الموشحات مما يتغنى به

وقد ارتاب حضرة الدكتور ضيف في أن الموشحات كانت مما يتغنى به ، وطلب الينا أن نأتي بمثل نستدل به على ذلك . وانا موردون هنا الحكاية التالية، مجتزئين بها عن سواها لضيق المقام ، قال ابن خلدون في مقدمته : « وكان في عصرها[1] أيضا الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة[2] - ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت ، صاحب سرقسطة ، فألقى على قيانه موشحته :

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

قالوا : « وما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، حتى صاح : « واطرباه » وشق ثيابه وقال : « ما أحسن مابدأت

---

(١) يعني في عصر ابن بقي والبطليوسي

(٢) انظر الي قوله صاحب التلاحين المعروفة

به وما ختمت وحلف الايمان المغلظة لا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب [١] فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه [٢] »

حسبنا هذا المثل لنستدل به على أن الغناء في الموشحات كان امراً مألوفاً — وهو في نظرنا أمر يترفع عن الجدل والتشكك وإن نظرة واحدة بادنى تأمل الى نسق الموشحات وطريقة إنشائها، كفيلة باقناعنا أنها لم تخلق الا ليتغنى بها .

* * *

ولا بأس أن نختم هذه المحاضرة بكلمة جامعة شاملة لابن خلدون تعد بمثابة المامة موجزة بتاريخ الغناء وهي الكلمة التي وعدنا حضراتكم بها في أوائل هذه المحاضرة حتى يسهل علينا الخروج بصورة واضحة عن محتويات هذا الفصل

---

(١) المعنى تافه ممج قد انهكه طول التكرار والشيوع فما السر في كل هذا الاعجاب ؟ ليس لهذا من سبب سوى روعة الالحان وجمال التوقيع وحسن صوت المغني ، والا فانا نستبعد ان يصل عقل صاحب سرقسطة من السخف الى حد ان يؤثر فيه هذا المعنى وأشباهه دون أن يكون لهذا سبب آخر !

(٢) مقدمة ابن خلدون

— ١١ —

الغناء

قال ابن خلدون من فصل عقده على الغناء نقتطف لكم منه ما يلي:

« هذه الصناعة (١) هى تلحين الاشعار الموزونة ، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه ، فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض ، على نسبة متعارفة ، فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الاصوات .... »

الى أن قال بعد كلام طويل :

« واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث فى العمران اذا توفر وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكمالى وتفننوا ، فتحدث هذه الصناعة ، لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره ، فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر احوالهم تفنناً في مذاهب الملذوذات ، وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في امصارهم ومدنهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد كان للملوك اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان فى دولتهم ،

(١) أى صناعة الغناء

وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها، وهذا شأن العجم لهذا العهد فى كل افق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم - وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام فى تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت، فتلائم الطبع بالتجزئة أولا، ثم يتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادىء، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها، فلهجوا به، فامتاز من كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره، لاجل اختصاصه بهذا التناسب، وجعلوه ديوانا لأخبارهم وحكمهم وشرفهم، ومحكا لقرائحهم فى اصابة المعانى واجادة الاساليب، واستمروا على ذلك وعلى هذا التناسب الذى من أجل الاجزاء والمتحرك والساكن الحروف كما هو معروف فى كتب الموسيقي، الا انهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحالهم، ثم تغنى الحداة منهم فى حداء ابلهم والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا، وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء، واذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيراً، بالغين المعجمة والباء الموحدة، وعللها ابو اسحق الزجاج بأنها تذكر بالغابر، وهو الباقى، أي بالأحوال الآخرة،

وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكر ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره ، وكانوا يسمونه السناد ، وكان أكثر مايكون منهم في الخفيف منه ، الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار ، فتطرب ويستخف الحلوم ، وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين ، وهو من اوائلها ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم ، شأن البسائط كلها من الصنائع

* * *

ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم ، فلما جاء الاسلام واستولوا ، على ممالك الدنيا ، وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه ، وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم ، مع غضارة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش ، فهجروا ذلك شيئاً ما ،

ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو ديتهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف ، وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غناء الامم ، صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ

وافترق المغنون من الفرس والروم ، فوقعوا الى الحجاز ، وصاروا موالي للعرب ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير ، والمعازف والمزامير ، وسمع العرب تلحينهم للاصوات ؛ فلحنوا عليها أشعارهم ، وظهر بالمدينة نشيط الفارسي ، وطويس وسائب

خاثر ، مولى عبد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه ، وأجادوا فيه وطار لهم ذكر

ثم أخذ عنهم معبد وطبقته ، وابن سريج وأنظاره ، وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس ، عند ابراهيم بن المهدى ، وابراهيم الموصلى ، وابنه اسحق وابنه حماد ، وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ، ما تبعه الحديث بعده به ومجالسه لهذا العهد ، وأمعنوا فى اللهو واللعب ، واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التى يترنم بها عليه ، وجعل صنفا وحده ، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج ، وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكرون ويفرون ويثاقفون ، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والاعراس وأيام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو

*
* *

وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق ، وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب ، أخذ عنهم الغناء فأجاد ، فصرفوه الى المغرب غيرة منه ، فلحق بالحكم (١) بن هشام ابن

(١) وقد أتاه نعي الحكم وهو فى طريق الذهاب اليه ، انظر الي (ص ١١٥)

عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس ، فبالغ فى تكرمته ، وركب للقائه ، وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات [١] ، وأحله من دولته وندمائه بمكان ، فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على امصارها ، وبها الآن منها صبابة ، على تراجع عمرانها ، وتناقص دولها . اهـ »

---

(١) ارجع الى (ص١١٣)

الأزجال

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الاندلس (١) ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع ابتدائه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ، ونظموا طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلزموا بها اعرابا ، واستحدثوه فأسموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناصبهم الى هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة ، قالوا : وأول من أبدع هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان ، وان كانت قيلت قبله في الاندلس ، لكن لم يظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه ، وكان لعهد الملثمين ، وهو امام الزجالين على الاطلاق »

قال ابن سعيد : « ورأيت ازجاله مروية ببغداد اكثر مما رأيتها بحواضر الغرب (٢) »

---

(١) ابن خلدون

(٢) نشأ ابن قزمان بقرطبة ، وكان كثير التردد على اشبيلية

* * *

والیکم بضع أمثلة من أعلى نماذج الزجل :

(١)

قال قاسم ابن عبود الرياحي في ختام زجل له :

ما أعجب حديثي إش هذا الجنون ؟
نطلب وندبر أمراً لا يكون ؟
وكم ذا نهون أمراً لا يهون ؟
واش مقدار ما نصبر لبعد الحبيب ؟
رب اجمعني معو عاجلا قريب .

وقد وصلت شهرته الي حد أن عده الناس فى الزجل كالمتنبي فى الشعر ، وذاعت ازجاله حتى رويت ببغداد ، حيث لقيت نجاحاً اكبر من نجاحها بحواضر المغرب ، كما قال ابن سعيد .

* * *

ثم جاء عبدالله المعروف بمدغليس ، بعد ابن قزمان هـذا ؛ فكان خليفته بحق ، وقد زادت شهرته حتى عد فى الزجل كابي تمام فى الشعر .

وانما شبه ابن قزمان بالمتنبي ومدغليس بأبي تمام لالتفات الاول الى المعنى والتفات الثاني الى اللفظ .

(٢)

وقال بعضهم :

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر

وقف علي منزل احبابى قبيل الفجر

وصيح فى حيهم: «يامن يريدالأجر!

ينهض يصلي علي ميت قتيل الهجر ! »

(٣)

وقال آخر :

عيني التى كنت أدعاكم بها باتت

ترعى النجوم ، وبالتسهيد اقتاتت

وأسهم البين صابتني ولا فاتت

وسلوتي — عظم الله أجركم — ماتت

(٤)

وقال رابع :

لى دهر بعشق جفونك وسنين

وأنت لاشفقة ولا قلب يلين

الى أن يقول فى ختام زجله :

خلق الله النصارى للغزو [١] وأنت تغزو قلوب العاشقين

(٥)

ومما اختاره ابن خلدون ، من زجل أهل مصر القاهرة ، وأحسن فى اختياره كل الاحسان ، قول بعضهم فى ذلك العصر

هذى جراحى طريا والدما تنضح
وقاتلى يا أخيا فى الفلا يمرح !
قالوا : « وناخذ بثارك » قلت : « ذا أقبح ! »

* * *

« وقد عم فن الزجل في الاندلس ، حتى كان العامة ينظمون فيه بطريقتهم العامية فى سائر البحور الخمسة عشر [٢] »

(١) وهذا المعنى يمثل لكم نفسية أهل هذا العصر ، وروحهم المشتبعة بالغزو والجهاد . (٢) ابن خلدون

هشام الثاني [١]

وحاجبه المنصور [٢]

خلف الحكم الثانى [٣] لولاية الحكم من بعده ، ولدا فى الحادية عشرة من عمره ، وهو هشام الثانى [٤] الذى انتقل اليه لقب الخلافة ، فى حين كانت تدير دفة سياسة الحكومة امه صباح ، وحاجبه الشديد الطموح والأثرة ، محمد بن أبى عامر ، الذى كان ملك أسبانيا الحقيقى

---

(١) معربة عن كتاب الاستاذ نيكلسون .

(٢) اسمه محمد بن عبد الله بن أبى عامر ، وكنيته أبو عامر ، ولم يتلقب بهذا اللقب «المنصور» الا فيما بعد ، حين استتب له الامر ، وحصر السلطة في يده ، كما سيمر بك

وأصله من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ؛ من قرية من أعمالها تسمي طرش على نهر وادى آروا

(٣) مات الحكم الثانى اثر اصابة فالج ألزمته الفراش والحت عليه حتى أودت به فى سنة ٣٦٦ هـ

(٤) ولى هشام الملك فى سنة ٣٦٦ ومات في سنة ٤٠٣ هـ

* * *

ومهما حدسنا فى تلك الوسائل التى نهض بها الى مكانته الرفيعة ، ومهما قيل عن سوء معاملته لذلك الخليفة التعس (هشام) الذى تعمد المنصور قتل مواهبه العقلية وقضي عليه أن يعيش مبعداً عن الناس ، فى عزلة كعزلة الرهاب ، فان من المحال أن ننكر عليه أنه ساس البلاد بإحكام ونبل ، وأنه كان سياسياً محنكا ، كما كان جندياً عظيما !

* * *

ولقد لقب نفسه « بالمنصور » فلم يجرؤ أحد أن ينكر عليه جدارته بهذا اللقب ، أو يعده من قبيل ولوع الكسالى بالفخار الكاذب ، وحسبك دليلا على أحقيته به ، أنه كان يقود جيشه لغزو المسيحيين مرتين فى كل عام ، وأنه ملأ القلوب ذعراً منه ورعباً ، فلم يخسر غزوة واحدة من غزواته التى أربت على الخمسين (١) !

* * *

---

(١) حدث المؤرخون أنه غزا نحو ست وخمسين غزوة فى حياته ، لم تنكس له فيها راية ، ولا فل له جيش .

ولما مات المنصور فى سنة ١٠٠٢ م [١] كتب راهب مسيحى فى سجل مذكراته الذى كان يقيد فيه الحوادث ، الجملة التالية ، تعليقاً على خبر موته : «وقد دفن فى الجحيم!»

أما المسلمون ، فنقشوا على قبر بطلهم البيتين التاليين :

آثاره تنبيك عن أوصافه ... حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله ... أبداً، ولا يحمى الثغور سواه

«ا . ﻫ»

(١) سنة ٣٩٤ ﻫ . بعد سبع وعشرين سنة من ملكه .

كيف وصل المنصور الى الملك؟

— ١ —

وفوده الى قرطبة

وفد المنصور الى قرطبة شابا ، فوجه عنايته الى تحصيل العلم والأدب وحفظ الحديث ، فبرع فى ذلك كله ، وتفوق على اقرانه

— ٢ —

تعلقه بالسيدة صبح (١)

"ثم اقتعد دكانا عند باب القصر ، يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم والرافعين الى السلطان ، الى أن طلبت السيدة صبح ، من يكتب عنها ، فعرفها به من كان يأنس اليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقى الى أن كتب عنها ، فاستحسنته (٢) "

---

(١) هي أم الخليفة هشام المؤيد وقد مر ذكرها في ص(٢٩٢)

(٢) ابن سعيد

— ٣ —

تدرجه في المناصب

„ فتنبهت عليه الحكم ، ورغبت في تشريفه بالخدمة ، فولاه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نجابة ، فترقى الى الزكاة والمواريث بأشبيليه

وتمكن فى قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة ، ما لم يتمكن لغيره [1] „

وما زال يرتفع شأنه ، ويتنبه ذكره ، حتى نقله الحكم من خطة القضاء إلى وزارته

— ٤ —

طموحه الى الملك

ولبث يتحين الفرص ، حتى توفى الحكم الثانى ، وبويع هشام الثانى الملقب بالمؤيد ، وخيف انتقاض الامور فتقدم المنصور لهذا الامر الجلل ، وضمن اصبح سكون

---

(١) ابن سعيد

الحال ، واستقرار الملك لابنها (١) فأمدته بالمال الكثير ، الذي استمال به الجند اليه

— ٥ —

استبداده بالسلطان

„ ثم سما له أمل في التغلب على هشام (٢) لمكانه في السن ، وثاب له رأى في الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة „ وتغلب على هشام وحجره ، (٣) واستولى على الدولة وملأ الدنيا وهو في بيته ، مع تعظيم الخلافة ، والخضوع لها ، ورد الامور اليها (٤) وترديد الغزو والجهاد ، فدانت له

---

(١) بدأ المنصور بقتل المغيرة أخي الحكم المرشح لامره ، في نفس الليلة التي تولى فيها هشام المؤيد ، بمالأة بعض رؤساء القصر ، الذين خشوا أن يزاحمهم أحد في الرئاسة اذا ولى الأمر غير هشام الصغير

(٢) ابن خلدون

( ) حتى انه منع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الايام ، يسلمون وينصرفون .

(٤) قالوا : „ ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال

أقطار الأندلس كلها ، ولم يضطرب عليه شيء

أثر المنصور في الاندلس

— ١ —

محق العصبية

أظهر المنصور من ضروب الحزامة والدربة مادانت له به أقطار الأندلس كلها ، فلم يضطرب عليه شيء منها في أيام حياته ، لدهائه وحسن سياسته ، وقوة شخصيته

ولعل أكبر عمل قام به في توطيد الأمر بالأندلس ، هو استئصاله تلك العصبيـة الممقوتة التي كانت ضاربة أطنابها في الأندلس (١)

عليهم وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضاً ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وترقيعه ، حتي استأصلهم وفرق جموعهم »

« ولما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة ، رجع الى الجند ؛ فاستدعي أهل العدوة من رجال زناته والبرابرة ، فرتب منهم جندا ، واصطنع أولياء »

(١) « وكان عرب الاندلس يعتزون بالقبـائل والعشائر

— ٢ —

بناء مدينة الزاهرة

ولا يسعنا أن نغفل الاشارة إلى تلك المدينة العظيمة ,, الزاهرة ،، التي بناها لنفسه ، ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة (١)

والبطون والأفخاذ ، الى أن قطع ذلك المنصور بن ابى عامر الداهية ، الذي ملك سلطنة الاندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التئامهم وتعصبهم في الاعتداء .

وقدم القواد على الاجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل .

فانحسمت عادة الفتن والاعتزاء بالاندلس ، الاماجاءت على غير هذه اه . » المقرى

(١) وقد حدث المؤرخون أنه قعد على سرير الملك ، وأمر أن يحيي بتحية الملوك ، وتسمي منذ ذلك الحين بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة الذي حرم من كل سلطة ولم يبق له من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، فقد استأثر المنصور دونه بكل شيء حتى كتب اسمه فى السكة والطرز .

ولعه بالغزو

ولقد بلغ به حبه الشديد للغزو، حداً قل أن نرى له مثيلا في سواه، فقد بلغ عدد غزواته ستا وخمسين غزوة، كما قدمنا (١) ففزع منه نصارى الأندلس، واشتد بهم الرعب حتى لقبوه بمطرقة الغضب الالهى كما رواه دوزى فى الفصل الذى عربناه لحضراتكم فى محاضرة سابقة (٢)

* * *

وفى الكلمة التالية التى ننقلها عن كتاب المعجب ما يزيدكم اقتناعا بذلك، قال:

„ وفتح فتوحا كثيرة، ووصل الى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله، وملأ الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدرر، وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا، ولولا ذلك لم يتزوج

---

(١) ارجع الى ص (٢٩٣) — وفى رواية أخرى ٥٢ غزوة

(٢) ارجع الى ص (١٠٣)

أحد حرة !،، قال : ،، بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبـة ، وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً عامرية ،،

مثال من صرامته

قالوا : ،، وقد انتهت هيبـة المنصور بن ابى عامر ، وضبطه للجند ، الى غاية لم يبلغها ملك قبله ، فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله ، مثلا فى الاطراق ، حتى إن الخيل لتتمثل اطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ،،

* * *

،، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان ـ لهزل أو جد ، بحيث ظن أن لحظ المنصور لاينا له ـ فقال : ،، علي بشاهر السيف ،، فمثل بين يديه لوقته ، فقال : ،، ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟ ،،

فقال : ،، انى أشرت به علي صاحبي مغمدا ، فذلق من غمده ! ،،

فقال : « ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ! » ، وأمر به فضربت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ، ونودي عليه بذنبه

مثال من فطنته

قدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس ، فتجرد ليسبح فى النهر ، وترك الكيس — وكان احمر — إلى ثيابه ، فرفعته حدأة فى مخالبها ، فجرى تابعا لها وقد ذهل ، فتغلغلت فى البساتين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع متحيراً

فشكا ذلك الى بعض من يأنس به ، فقال له : « صف حالك لابن أبى عامر »

فتلطف فى وصف ذلك بين يديه ، فقال : « ننظر إن شاء الله فى شأنك » ، وجعل يستدعى أصحاب تلك البساتين ويسأل خدامها عمن ظهر عليه تبديل حاله ، فأخبروه أن شخصا ينقل الزبل ، اشترى حمارا ، وظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك

فأمر بمجيئه ، فلما وقعت عينه عليه قال له : « أحضر الكيس الأحمر » فتملك الرعب قلبه وارتعش ، وقال :

„ دعني آت به من منزلي „

فوكل به من حمله الى منزله وجاء بالكيس وقد نقص منه ما لا يقدح في مسرة صاحبه، فجبره ودفعه الى صاحبه فقال : „ والله لاحدثن في مشارق الارض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور ، وينصف منها „

والتفت ابن أبي عامر الى الزبال وقال له : „ لو أتيت به أغنيناك ، لكن تخرج كفافا لا عقابا ولا ثوابا [1] „

نفاذ بصيرته

„ وكان من عادته ، اذا أراد أمرا مهما ، شاور أرباب الدولة الاكابر ، من خدام الدولة الاموية ، فيشيرون عليه بالوجه الذى عرفوه ، وجرت الدولة الاموية عليه ، فيخالفهم الى المنهج الذى ابتدعه ، فيقضون في انفسهم بالهلاك في الطريق الذى سلكه ، والمهيع الذى اخترعه ، فتسفر العاقبة عن السلامة التامة ، التي اقتضاها سعده ، فيكثرون التعجب من موارد اموره ومصادرها [2]

---

(١) ابن سعيد (٢) نفح الطيب

شعوره بجده

ولعل أهم ما يسترعى نظر الباحثين ، من مزايا المنصور شعوره بجده ، فقد صحبه هذا الشعور من عهد حداثته ، وكان له فى رفعته أكبر أثر ، فشجعه على مواجهة الشدائد ، وتذليل العقبات التى اعترضته فى سبيل نهوضه وكأن المنصور كان يحس فى نفسه احساسا خفيا ، بسعود جده ونباهة شأنه فى مستقبل أمره ، وكأنه كان يشعر تماما أن الزمان لا شك محالفه ، وأن الظروف بلا ريب ستعينه على بلوغ اربته ، فكان له من ذلك الشعور الخفى قوة هائلة سحقت امامها كل اعتبار !

* * *

وليس أدل على ذلك من الحكايات الثلاث التالية ، التي تمثله اولاها وثانيتها ، وهو فى بدء حياته ، يحلم بالسيطرة والحكم ، أبعد ما يكون عن الوصول اليهما ، ولكنه يراهما - رغم ذلك - قاب قوسين منه أو ادنى ، ويشعر تماما أنهما فى متناول يده بعد قليل ، وتشتد به الثقة الى حد أن

يحدث بعض أصدقائه بما يقع له فى ذلك ، بل إلى حد أن يفكر فى تعيين من يصلح المناصب ، وهو ناشىء يطلب العلم

* * *

ونراه فى الحكاية الثالثة ـ وهو فى أيام رفعته بعد أن حالفه الجد وتم له الأمر ـ واثقا من دوام محالفة الزمان له ، مطمئنا الى جده ، ساخرا بكل شؤم يصادفه ، ليقينه من تغلب سعده على كل عقبة تعترضه

— ١ —

واليكم الحكاية الاولى :

حكي ابو عبد الله بن اسحق التميمى ، قال :

„ كان محمد بن أبى عامر نازلا عندى فى حجرة فوق بيتى ، فدخلت عليه فى بعض الليالى فى آخر الليل ، فوجدته قاعدا على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه ، فقلت له : „ ما أراك نمت الليلة ؟ „ قال : „ لا ؟ „ قلت : „ فما أسهرك ؟ „ قال : „ فكرة عجيبة ! „ قلت :

„ فبماذا كنت تفكر ؟ „ قال : „ فكرت إذا أفضى الي الأمر ومات محمد بن بشير القاضي ، بمن أستبدله ، ومن الذي يقوم مقامه ، فجالت الاندلس كلها بخاطري ، فلم أجد الا رجلا واحدا „ قلت : „ لعله محمد بن السليم ؟ „ قال : „ هو والله هو ! لشد ما اتفق خاطري وخاطرك [1] „

— ٢ —

واليكم الحكاية الثانية

كان ابن أبي عامر [2] يوما جالسا مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم ، فقال لهم : „ ليختر كل واحد منكم خطة اوليه اياها اذا افضى الي الأمر „ فقال أحدهم : „ توليني قضاء كورة رية — وهي مالقة واعمالها — فانه يعجبني هذا التين الذي يجيء منها „ وقال الآخر : „ توليني حسبة السوق ، فاني أحب هذا الاسفنج „ وقال الثالث : „ اذا أفضى اليك الأمر ، فأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي الى الذنب وأنا مطلي بالعسل ، ليجتمع علي الذباب والنحل [3] „

(١) المعجب (٢) المعجب

(٣) « وافترقوا على هذا ، فلما أفضي الامر اليه كما تمنى ،

- ٣ -

واليكم الحكاية الثالثة[١]

قيل له مرة : „ ان فلانا مشئوم ، فلا تستخدمه ! „

فقال : „ اف لسعد لا يغطى على شؤمه[٢] „

مثال من تأملاته

وكان كثير التأمل ، شديد الخوف على هذا الملك العظيم الذى بذل قصارى وسعه فى تثبيت دعائمه ، أن تذهب به عواصف الفتن بعده ، وكأنه كان على ثقة أن سيل الفوضى الجارف - الذى وقف أمامه سدا منيعا ، فانقذ البلاد من طغيانه ، بحكمته وشدة أيده ، سوف لا بد يغمرها دفعة واحدة ، بعد مماته بقليل ، ومن أمثلة هذه التأملات التى كانت تشغل رأسه أحيانا ، ما يرويه لنا المقرى فى القطعة التالية :

بلغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب »

(١) نفح الطيب (٢) قالوا : « فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذى جرت به العادة شيء »

كان المنصور في قصره بالزاهرة ، فتأمل محاسنه ، ونظر الى مياهه المطردة ، وانصت لاطياره المغردة ، وملأ عينه من الذي حواه من حسن وجمال ، والتفت في الزاهرة من اليمين الى الشمال ، فانحدرت دموعه ، وتجهم ، وقال :

« ويها لك يا زاهرة ! فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب ؟ »

فقال له بعض خاصته : « ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط ؛ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به ؟ »

فقال : « والله لترون ما قلت ، وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، وبمبانيها قد هدمت ونحيت وبخزائنها قد نهبت ، وبساحاتها قد اضرمت بنار الفتنة وألهبت (١) »

---

(١) ولقد صحت نبوءته ، وحققت الايام صدق حدوسه ، قال الحاكي : « فلم يكن الا أن توفي المنصور ، وتولى المظفر ـ ولم تطل مدته ـ فقام بالامر أخوه عبدالرحمن الملقب « بسنجول » فقام عليه المهدي والعامة ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة ـ

أثر البلاغة في نفسه

وكان المنصور كـكل عربى ، تهزه البلاغـة ، ويملك نفسه الجواب الحاضر ، وربما كان ادل مثل نسوقه على ذلك ، الحـكاية التالية :

— ١ —

« كان بقرطبة على عهد المنصور ، فتى من أهل الادب قد رقت حاله فى الطلب ، فتعلق بكتاب العمل ، واختلف الى الخزانة حتى قلد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيرا من المال ، فلما ضم الى الحساب ، ابرز عليه ثلاثة آلاف دينار

فرفع خبره الى المنصور ، فأمر باحضاره ، فلما مثل بين يديه ، ولزم الاقرار بما برز عليه ، قال له :

« يا فاسق ما الذي جرأك على مال السلطان تنتهبه ؟ »

فقال : « قضاء غاب الرأي ، وفقر أفسد الامانة ! »

وانقرضت دولة بنى عامر ، ولم يبق منهم آمر :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر
بلى ! نحن كنا اهلها ، فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

فقال المنصور : « والله لاجعلنك نكالا لغيرك ، ليحضر كبل وحداد »

فاحضرا ، فكبل الفتى ، وقال : « احملوه الى السجن ، وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أواه ! أواه ! وكم ذا أرى أكثر من تذكار أواه
ما لامرىء حول ولا قوة الحول والقوة لله !

فقال المنصور « ردوه ! » فلما ردوه ، قال « أتمثلت أم قلت ؟ »

قال : « بل قلت » فقال : « حلوا عنه كبله » فلما حل عنه ، أنشأ يقول :

أما ترى عفو أبي عامر لا بد أن تتبعه منة
كذلك الله اذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة

فأمر باطلاقه ، وسوغه ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه (١)

(١) نفح الطيب

مثال من بلاغته

نموذج من نثره

المنصور والرمادى

ونغتنم هذه المناسبة ، لنعرض على حضراتكم مثلا من نثره ، تتبينون منه القمة التى وصلت اليها بلاغته ، ونمسك القلم عن التعليق عليه رغبة فى توخى الايجاز الذى يضطرنا اليه ضيق الوقت ، واليكم يساق الحديث:

قال المنصور للرمادى الشاعر المشهور :

« كيف ترى حالك معي ؟ »

فقال : « فوق قدرى ودون قدرك ! »

فأطرق المنصور كالغضبان ، فانسل الرمادى ، وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : « أخطأت والله ، ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرنى لو قلت له : « اني بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ، وأنشدته :

متى يأت هذا الموت لم يلف حاجة

لنفسي الا قد قضيت قضاءها

لا حول ولا قوة الا بالله ! »

ولما خرج كان فى المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : ” وصل الله لمولانا الظفر والسعد ، إن هذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلاً ولا ذمة ، كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجدب ، وحسبك منهم ان الله جل جلاله يقول فيهم : « والشعراء يتبعهم الغاوون » الى آخر الآية ، فالابتعاد منهم اولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم ، الصدق يستحسن الا منهم ؟ “

***

فرفع المنصور رأسه ، وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال :

ما بال قوم يشيرون فى شىء لم يستشاروا فيه ، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضي أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يبعث ! قد علمنا غرضك فى أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك فى هذا الرجل خاصة ، ولسنا ان شاء الله نبلغ احدا غرضه فى أحد ، ولو بلغنا كم بلغنا فى جانبكم ، وانك ضربت فى حديد بارد ، وأخطأت وجه الصواب ، فزدت بذلك احتقارا وصغارا ، واني ما اطرقت من خطاب الرمادي انكارا عليه ، بل رأيت كلاما يجل عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديه له بسرعة ، واستنباطه له على قلته من الاحسان الغامر ، ما لا يستنبطه غيره بالكثير !

والله لو حكمته في بيوت الاموال ، لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قلبه ذرة

*
* *

واياكم أن يعود احد منكم الى الكلام فى شخص قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا فى أوليائنا ، ولو ابصرتم منا التغير عليهم ، فانا لا نتغير عليهم بغضا لهم ، وانحرافا عنهم ، بل تأديبا وانكارا !

فانا من نريد ابعاده ، لم نظهر له التغير ، بل ننبذه

مرة واحدة ، فان التغير انما يكون لمن يراد استبقاؤه ، ولو كنت مائل السمع لكل احد منكم فى صاحبه ، لتفرقتم أيدي سبا وجونبت أنا مجانبة الاجرب

واني — وقد اطلعتكم على ما في ضميري ، فلا تعدلوا عن مرضاتي ، فتجنبوا سخطى بما جنيتموه على انفسكم »

* * *

قالوا : ثم أمر أن يرد الرمادي ، وقال له : « أعد على كلامك ! » فارتاع فقال : « الامر على خلاف ما قدرت ، الثواب اولى بكلامك من العقاب » فسكن لتأنيسه وأعاد ما تكلم به ، فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان ابن المنذر حشي فم النابغة بالدر ، لكلام استحسنه منه ، وقد امرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ، ما هو أنوه واحسن عائدة ، وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش منه

* * *

ثم رد رأسه الى المتكلم فى شأن الرمادي ، وقد كاد يغوص فى الارض — لو وجد — لشدة ما حل به ، عما سمع ورأى ، قال : ,, والعجب من قوم يقولون : « الابتعاد من

الشعراء اولى من الاقتراب » نعم ! ذلك لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها، ولا أيادي يرغب في نشرها، فأين الذين قيل فيهم :

على مكثريهم رزق من يعتريهم
وعند المقلين السماحة والبذل

وأين الذي قيل فيه :

انما الدنيا أبو دلف   بين مبداه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف   ولت الدنيا على أثره

أماكان في الجاهلية والاسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ! ولكن صحبة الشعراء والاحسان لهم أحيت غابر ذكرهم، وخصتهم بمفاخر عصرهم، وغيرهم لم تخلد الامداح مآثرهم، فدثر ذكرهم، ودرس فخرهم [1] ».

(١) المقري

مثالان من شعره

أما شعره ، الذى عثرنا به ، فلا يتجاوز بضع أبيات قال بعضها مفتخرا بعصاميته ، وبعد مرقى همته ، وقال بعضها الآخر فى إظهار طموح نفسه الى ملك مصر والحجاز

— ١ —

أما أولهما فقوله :

رميت بنفسي هول كل عظيمة

وخاطرت ،والحر الكريم يخاطر

وما صاحبي الا جنان مشيع

وأسمر خطى ، وأبيض باتر (١)

فسدت بنفسى أهل كل سيادة

وفاخرت ، حتى لم أجد من أفاخر

---

(١) لعل خير من أبدع فى هذا المعنى ، هو عمرو بن سراقة الهمدانى ، فى ميميته المتأججة بنار الحماس ، حين يقول :

متى تصحب القلب الذكى ، وصارما

وأنفا حميا ، تجتنبك المظالم !

— ٢ —

وثانيهما قوله :

منع العين أن تذوق المناما

حبها أن ترى الصفا والمقاما

لى ديون بالشرق ، عند أناس

قد أحلوا بالمشعرين الحراما

ان قضوها نالوا الأماز ، وإلا

جعلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب تري خيول هشام (١)

يبلغ النيل خطوها والشاما

---

(١) يعنى جيش هشام الثاني ، الخليفة الصورى

نماذج

من مجالس الأدب ومجالس اللهو في الاندلس

في زمن المنصور

« وكان للمنصور مجلس في كل »
« أسبوع يجتمع فيه أهل العلم »
« للمناظرة بحضرته ، ما كان »
« مقيماً بقرطبة   المعجب »

لعل أصدق مرآة يستجلي بها الانسان صورة عصر من العصور ، هي تلك المجالس ، وما قد يدور فيها من الحوار والملح ، ففيها يرى الانسان بنفسه عادات القوم واخلاقهم ، ومن ثناياها يلمح وجهة تفكيرهم وطريقة محادثتهم ، ويشاهد الناحية التي تتجه اليها عقولهم ، والنقط الرئسية التي يدور عليها محور مناقشاتهم وجدلهم ، ورب عبارة واحدة ، يفوه بها أحدهم دون تحرج ، وعلى غير عمد ، تدلنا على قابلية الوسط في ذلك العصر ، أو نفوره لمبدأ اجتماعي هام ، غفل المؤرخون

عن ذكره ، أو أهملوا الاشارة اليه

* * *

ولنذكر أن الأدب هو أصدق مرآة للنفوس ، وأن قرطبة كانت تحوى فى ذلك الزمن صفوة أدباء الأندلس ، وأن الملوك والأمراء كانوا — لفرط عنايتهم بالادب — يضمون الى مجالسهم ، خير ما تحويه هذه الصفوة الراقية من أساطين الادباء والعلماء الذين انجبهم ذلك العصر الزاهر ، والذين كانوا قدوة جمهور الأدباء فى ذلك العصر ، وكانت مجالسهم المعين الذى تستقى منه الحركات العلمية والادبية والاخلاقية ، ومتى أقررنا ذلك أدركنا خطر هذه المجالس ، وأهمية المناقشات التى كانت تدور فيها .

* * *

ونحن نسرد على حضراتكم بضع نماذج لتلك المجالس ، محاولين جهدنا ، أن نرسم ، صورة ناصعة ، من الصور المشرقة بالحياة التى نشاهدها فى ذلك العصر الزاهى الذى اعتزت به الاندلس ، واعتز به الادب العربي

ونجتزىء فى هذه الالمامة السريعة ، بأمثلة ثلاثة منها ،

ممسكين عن التعليق عليها ـ كما امسكنا عن التعليق على غيرها من قبل ، رغبة فى تحرى الايجاز الشديد

على ان مجال القول ذو سعة ، ونحن فلو شئنا أن نطلق لانفسنا العنان فى مناقشة كل ما نأتي به وتحليله ، لطال بنا القول وضاق الوقت عن ايفاء موضوع واحد من المواضيع الكثيرة التي أخذنا أنفسنا بالكلام عنها ، فلنكتف بهذه العلالة الآن :

— ١ —

مجلس ادب

كيف امتحنوا صاعدا

جلس المنصور يوما [1] وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدى والعاصمى وابن العريف وغيرهم فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا [2] يزعم

(١) نفح الطيب (٢) يعنى ابا العلاء صاعدا وسيمر بك ترجمته بعد قليل

أنه متقدم فى هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ، فوجه اليه ، فلما مثل بين يديه ، والمجلس قد احتفل ، خجل ، فرفع المنصور محله ، وأقبل عليه وسأله عن ابن سعيد السيرافى ، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه

فبادره العاصى بالسؤال عن مسئلة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته

فقال له الزبيدى : « فما تحسن أيها الشيخ ؟ »

فقال : « حفظ الغريب » قال : « فما وزن اواق ؟ »

فضحك صاعد وقال : « أمثلى يسأل عن هذا ؟ انما يسأل عنه صبيان المكتب ! »

قال الزهرى : « قد سألناك ، ولا نشك أنك تجهله »

فتغير لونه وقال : « أفعل وزنه »

فقال الزبيدي : « صاحبكم ممخرق ! »

* * *

وقال له صاعد : « إخال الشيخ بضاعته الأبنية ! » فقال له : « أجل » فقال صاعد : « وبضاعتى أنا حفظ الاشعار ،

ورواية الاخبار ، وفك المعمى ، وعلم الموسيقى ! »

قالوا : « فناظره ابن العريف [1] فظهر عليه صاعد وجعل لا يجرى فى المجلس كلمة ، إلا أنشد شعرا شاهدا ، وأتى بحكاية تجانسها »

— ٢ —

مجلس آخر

بداهة صاعد [2]

كان صاعد بين يدى المنصور ، فاحضرت اليه

---

(١) سيمر بك بعد قليل شيء من مناقضات ابن العريف مع صاعد ، تتبين منه المنافسة الشديدة التي كانت بينهما ، والحقد الذى كان يضمره كل منهما للآخر

(٢) ترجمة صاعد

اسمه صاعد بن الحسن الربعي ، وكنيته أبو العلاء ، وأصله من الموصل ، وقد تعلم فى بغداد ، واستمر بها حتى تبحر في اللغة والأدب ، ثم ورد على المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٨٠ فى أيام امارته ، فأراد المنصور ان يعفي به آثار أبى على القالى ، فلم يجد

وردة فى غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلا :

عنده ما يرتقبه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا فى علمه وعقله ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئاً ، لقلة الثقة به .

وقد ذكر ابن بسام أن الاندلسيين دحضوا كتابه «الفصوص» الذى الفه للمنصور - ونحابه منحي كتاب النوادر للقالى - وأنهم نبذوه في النهر ، وذكر المراكشي صاحب كتاب المعجب والمقري وغيرهما ، هذه الحكاية بروايات أخري ،أشهرها أنه دفع الكتاب للغلام بعد تمامه ، فعبر فزلت قدم الغلام به - وهو يعبر نهر قرطبة - فسقط هو والكتاب في النهر

قالوا : ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلا بحضرة المنصور :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص

وهكـذا كل ثقيل يغـوص !

فضحك المنصور والحاضرون ، ولكن ذلك لم يرع صاعدا ، فقـال :

عاد الى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص

* * *

وكان السبب فى تأليفه هـذا الكتاب ، أن المنصور أراه كتاب النوادر للقالى ، فأكد له صاعد أن في قدرته أن يؤلف

أتتك أبا عامر وردة   يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر   فغطت بأكمامها راسها

كتابا خيرا منه ، وقال له : « ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتابا أرفع منه وأجل ، لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو على ! » فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع « الزاهرة » يملى كتابه « الفصوص » حتى أكمله

قالوا : فتتبعه أدباء ذلك الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم ! »

***

ولقد أحسن ابن بسام كل الاحسان ، وتوخى شرعة الانصاف والعدالة ، فى تعليقه على هذا الخبر ، حين قال : « ما أظن أحدا يجترىء على مثل هذا ! وانما صاعد اشترط أن لا يأتى الا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه ، بما كان يتنفق به من الكذب ! »

***

وقد صدق ابن بسام ، فان اندفاع صاعد فى الاجابة على كل سؤال ، من غير تدبر ولا اعمال روية ، قد كلفه ثمنا غاليا جداً ، هو عدم تحرى الصدق فى قوله وروايته ، وثم قلت ثقة الاندلسيين به ، وعزفوا عن علومه

***

فسر بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضرا ، فحسده وجرى الى مناقضته ، وقال المنصور : هذان البيتان لغيره

وكيف يثق الاندلسيون بكلام رجل هو أسرع الناس بديهة فى ادعاء الباطل ، يكذب لاقل مناسبة حتى لا يرمى بالقصور أو قلة الاطلاع ،

أمثلة من اكاذيبه

(١)

فمن اكاذيبه المديدة ، ما أجاب به المنصور حين سأله يوما عن الخنبشار ، فقال له : « هو حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الاعراب ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لقـد عقدت محبتها بقلبي كما عقد الحليب بخنبشار ! »

وقد اشتهر هـذا البيت حتى أصبح مثلا يتندر به أكثر الأدباء ، كلما عنت لهم مناسبة تذكرهم به !

(٢)

وقدم له المنصور يوما طبقا فيه تمر ، وسأله عن التمركل فى كلام العرب ، فأجابه بغير احتراس : « يقال تمركل الرجل تمركلا إذا التف فى كسائه ! »

***

وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : « أرنيه » فخرج

---

(٣)

وأتوا اليه مرة بكراريس بيضاء ، جمعوها في مجلد ، وأزالوا جدتها حتى ترهم القدم ، وترجم عليه : « كتاب النكت تأليف أبي على الغوث الصنعاني »

فترامى اليه صاعد — حين رآه — وجعل يقبله ويقول : « أى والله قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان »

فأخذه المنصور من يده خوفا أن يفتحه ، وقال له : « ان كنت قد قرأته كما تزعم فعلام يحتوي ؟ »

فقال : « وأبيك ! لقد بعد عهدى به ولا أحفظ الآن منه شيئا ، ولكنه يحتوى على لغة منثوره ، لا يشوبها شعر ولا خبر

فقال له المنصور : « أبعد الله مثلك ! فما رأيت أكذب منك » وأمر باخراجه !

* * *

وقد هجا صاعد كثيراً من معاصريه وهجوه ، ولعل أفظع ما قيل فيه من الهجاء ، قول بعضهم :

اقبل هديت أبا العلاء نصيحتى بقبولها ، وبواجب الشكر

لا تهجون أسن منك ، فربما تهجو أباك وأنت لا تدرى !

ابن العريف ، وركب وحرك دابته حتى اتى مجلس ابن برد ، وكان أحسن أهل زمانه بديهة ، فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتى صاعد :

عشوت الى قصر عباسة ... وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها ـ وهى فى خدرها ... وقد صرع السكر أناسها ـ
فقالت « أسار على هجعة ؟ » ... فقلت « بلى ! » فرمت كاسها
ومدت يديها الى وردة ... يحاكي لك الطيب انفاسها
كعذراء ابصرها مبصر ... فغطت بأكمامها راسها
وقالت خف الله لا تفضحن ... فى ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة ... وما خنت ناسى ، ولا ناسها

فطار ابن العريف بها ، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى ، ومداد أشقر ، ودخل بها على المنصور

فلما رآها اشتد غيظه ، وقال للحاضرين :

« غدا امتحنه ، فان فضحه الامتحان اخرجته من البلاد ولم يبق فى موضع لى عليه سلطان ! »

فلما أصبح ، وجه اليه ، فاحضر ، واحضر معه جميع الندماء ، فدخل بهم الى مجلس محفل ، قد أعد فيه طبقا عظيما

فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، ووضع على السقائف لعب من ياسمين فى شكل الجوارى، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلىء مثل الحصباء، وفى البركة حية تسبح

فلما دخل صاعد ورأى الطبق، قال له المنصور: «ان هذا اليوم، اما أن تسعد فيه معنا واما أن تشقى بالضد عندنا، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتى به دعوى وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق، ما توهمت أنه عمل لملك مثله. فان وصفته بجميع ما فيه، علمت صحة ما تذكره»

فقال صاعد بديهة:

أبا عامر! هل غير جدواك واكف؟
وهل غير من عادك فى الارض خائف؟
يسوق اليك الدهر كل غريبة
واعجب ما يلقاه عندك واصف
وشائع نور، صاغها هامر الحيا
على حافتيها عبقر ورفارف

ولما تناهى الحسن فيها ، تقابلت
عليها بأنواع الملاهى الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنسا
تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب منها أنهن نواظر
الى بركة ضمت اليها الطرائف
حصاها اللآلى ، سابح فى عبابها
من الرقش مشئوم الثعابين زاحف
ترى ما تراه الحسن فى جنباتها
من الوحش ، حتى بينهن السلاحف

***

قالوا : « فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، فى مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه »

وكان الى ناحية من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النور تجذب بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : « أحسنت ! الا أنك اغفلت ذكر المركب والجارية ، فقال للوقت »

وأعجب منها غادة في سفينة
مكللة تصبو اليها المهافف
اذا راعها موج من الماء تتقى
بسكانها، ما إن ذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب
تصرف فى يمنى يديها المجاذف
ولم تر عينى فى البلاد حديقة
تنقلها فى الراحتين الوصائف
ولا غرو ان ساقت معاليك روضة
وشتها ازاهير الربى والزخارف
فأنت امرؤ، لو رمت نقل متالع
ورضوى، زوتها من سطاك نواسف
اذا رمت قولا، أو طلبت بديهة
فكلنى له، إنى لمجدك واصف

قالوا: « فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب، ورتب له فى كل شهر ثلاثين دينارا [1] »

---

(١) نفح الطيب

— ٣ —

مجلس ثالث

مناقضة صاعد مع ابن العريف فى حضرة المنصور

ونتهز هذه المناسبة فنختار من الامثلة الكثيرة التى تثبت حضور ذهنه وقوة عارضته ، حكايته مع ابن العريف بحضرة المنصور ، وقد رواها ابن سعيد . وخلاصتها أن ابن العريف دخل يوما على المنصور ، وعنده صاعد ، فأنشده ـ وهو بالموضع المعروف بالعامرية ـ من أبيات :

فالعامرية تزهى   على جميع المباني
وأنت فيها كسيف   قد حل فى غمدان

فأظهر صاعد المنصور أن فى استطاعته أن يرتجل خيراً من هذا الشعر الذى اعده ابن العريف وروّى فيه ، فطلب منه المنصور أن يفعل ، ليظهر صدق دعواه ، فقال من غير فكرة طويلة :

يا ايها الحاجب المعتلى على كيوان

ومن به قد تناهى فخار كل يمانى

العامرية أضحت كجنة الرضوان

فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

ثم مر فى الشعر الى أن قال فى ختام الابيات :

فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان

فأعجب المنصور ببداهته وقال لابن العريف : « مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ »

فأجابه ابن العريف : « انما انطقه وقرب عليه المأخذ احسانك ! »

فقال له صاعد : « يفهم من هذا أن قلة احسانه اليك أسكتتك وبعدت عليك المأخذ ! »

فضحك المنصور وقال : « غير هذه المنازعة اليق بأدبكما ! »

نموذج من مجالس اللهو

مجلس انس ورقص

« كان صاعد اللغوى كثيرا مايمدح بلاد العراق بمجلس المنصور ويصفها ويقرظها ، فكتب الوزير عبدالملك ابن شهيد [1] الى المنصور فى يوم برد ، بهذه الابيات :

أما ترى برد يومنـا هذا — صيرنا للكمون افذاذا ؟
قد فطرت صحة الكبود به — حتى لكادت تعود أفلاذا !
فادع بنا للشمول مصطليا — نفذ سيرا اليك إغذاذا
وادع المسمى بها ، وصاحبه — تدع نبيلا ، وتدع استاذا
ولا نبالى أبا العلاء [2] زها — بخمر قطربل وكلواذا
مادام فى أرملاط مشربنا — دع دير عمى ، وطيرناباذا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم

---

(١) عبد الملك ابن شهيد هو والد الوزير أبى عامر احمد ابن شهيد ، وابنه هذا هو الشاعر المشهور الذي تقدم ذكره وطرف من أخباره في ص (٢١٤)

(٢) يعنى أبا العلا صاعداً وقدمر ذكره وترجمته فى ص (٣٢٢)

فأمر باحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء ، واحضر ابن شهيد فى محفة ، لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا فى شأنهم ، فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره وطما الطرب ، وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور الى ابن شهيد ، فأقامه الوزير ابو عبد الله بن عباس ، فجعل يرقص ، وهو متوك عليه ، ويرتجل ، ويومي الى المنصور ، وقد غلبه السكر :

هاك شيخا قاده السكر لكا قام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا فانثنى يرقصها مستمسكا
عافه عن هزها منفردا نقرس ، اخنى عليه ، فاتكى
من وزير فيهم رقاصة قام للسكر يناغى ملكا !
أنا لو كنت كما تعرفنى قمت اجلالا على رأسى لكا
قهقه الابريق منى ضاحكا ورأى رعشة رجلى فبكى

قالوا : « وكان حاضرهم ذلك اليوم ، رجل بغدادى حسن النادرة سريعها [1] فلما رأى ابن شهيد يرقص قائما

---

(١) وكان يعرف بالمكيك ، وكان ابن شهيد استحضره الى المنصور !

من ألم المرض الذى كان يمنعه من الحركة ، قال : « لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلى بالقاعدة ؟ »

فضحك المنصور وامر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغدادى (١) »

(١) المقرى

وذلك أنهم ـ بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة ـ وقع فى أيديهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها . فعاش اولئك المسيحيون فى كنف المسلمين . وأحسنت الحكومة معاملتهم ومنحتهم الحرية الدينية ، وكثيرا ما رفعتهم الى مناصب عالية فى الجيش وفى بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتتن بها افتتانا ، حتى رأينا « الفارو » كاهن قرطبة فى اواسط القرن التاسع الميلاد يولول فى اوائل ذلك العصر شاكيا من ابناء دينه انكبابهم على مطالعة أشعار العرب واساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتي المسلمين وفلاسفتهم ـ لا بقصد تفنيدها ـ بل رغبة فى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربى رشيق وصحيح ـ

شكوى الفارو

وكان الفارو يتساءل قائلا : ،، أنى يتاح لإنسان فى هذه الأيام ان يقابل واحداً من ابناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الاناجيل وسير الانبياء والحواريين ؟؟ واحسرتاه ؟ ان كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب ، لا يعرفون إلا

العربية وإلا كتابات العرب ، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه ـ كما انهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها فى مكاتبهم . وتراهم ـ أني وجدوا ـ يذيعون ان تلك الاداب جديرة بالاعجاب ، فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم ، وأجابوك باحتقار ـ « إنها اسفار لا تستحق الذكر ! » واحسرتا عليهم ! لقد نسى المسيحيون لغتهم ، حتى ليندر العثور ـ بين الآف منا ـ على فرد يستطيع ان يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به ـ على حين ترى العدد الجم قادراً على الابانة عما فى نفسه بأسلوب عربي خلاب ، وعلى حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل الى حد فاقوا معه العرب أنفسهم ، » اهـ

ومهما يكن فى كلام هذا الكاهن من المغالاة فمما يترفع عن الجدل والتشكك ، أن التهذيب الاسلامى قد أخذ بألباب المسيحيين الاسبان ، كما افتتن به اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التى انشئوها بلغتهم وبلغة ابناء عمهم « العرب »

أما المولدون والصابئون من الاسبانيين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى فقد استعربوا تماما بعد أجيال قليلة ، ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الادب العربى

— ٣ —

شعر العرب الاسبانيين

وقد كان للشعر العربي فى أوربا على وجه الاجمال نفس الخصائص التى رأيناها فى الشعر المعاصر له فى الشرق فان الاوزان المصطلح عليها والقيود التى لم يستطع أساطين بغداد وحلب أن يحرروا أنفسهم من ربقتها ظلت بحذافيرها فى قرطبة وأشبيلية

وكما تأثر الشعر العربي فى الشرق بالاداب الفارسية فقد تأثر فى اسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئا فشيئا ـ فكان ذلك سببا فى ادخال عناصر جديدة ظهرت فى آدابهما

ولعل امتع ميزات الشعر الاسباني هى ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر وجود مثله في النسيب ، والذى ظهر كثيرا فى اغانيهم عن الحب ، وهو وجدان لا يقتصر

على تصوير فروسية القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك الى حد أن تحسبه احساسا جديدا بمحاسن الطبيعة التى جملته !

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لا يسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبي

وقد كان يكون من الممتع ـ لولا ضيق المقام ـ أن نترجم هنا بضع قصائد وصفية فاتنة مما جمعه المنتخبون ، على أن اغفال ذلك لايحزننا كثيرا فقد نقل الينا شاخ عدة مجاميع من أبدع المترجمات فى كتابه المسمى « شعر العرب وفنونهم فى اسبانيا وصقلية » poeise und kunst der araber in spanien. and Sicilien.

وقدروى لنا القزوينى عن مدينة شلب (Shilb) بالبرتقال أن من احدى عجائبها تلك الحقيقة التي أقرها أفراد لايحصون وهي قوله : « وكان من مدنهم مثل شلب ، قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعانى الادب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه [1] »

---

(١) ارجع الى ص (٢٤٥)

- ٤ -

الاغانى الدارجة

وكان من بين تلك الاغانى الدراجة فنا الزجل [١] والموشحات [٢] وهما ضربان محبوبان ، وكلاهما مبتدع فى اسبانيا ، ووضعهما معروف وانشاؤهما متجانس . ويتركب أغلب هذه الاغانى والاوضاع الدارجة ، من العامية الرقيقة غير المقيدة بقواعد اللغة [٣]

وأول من رفع الزجل الى مرتبـة الادب هو ابن قزمان ، فى سنة ١١٦٠ ميلادية .

ومما نقل الينا من مخلفات الامويين بالاندلس ، نرى أن شغفهم بالشعر والموسيقي والبلاغة الراقية ، قد زاد حتي عن حبهم القران [٤]

---

(١) ارجع الى ص (٢٨٨)

(٢) ارجع الى ص (٢٣٣)

(٣) ارجع الى ص (٢٨٨)

(٤) ارجع الى ص (٤٠)

٢

عناية الأندلسيين بالحفظ

— ١ —

الى أي حد بلغت !

*
* *

قال الوزير أبو بكر ابن وزير أبي مروان عبد الملك: « بينما أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ امرته ان يكتب لى كتاب الاغاني . فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبتها فقلت له: « أين الاصل الذى كتبت منه لاقابل معك به ؟ » قال: « ما أتيت به معي » فبينما أنا معه فى ذلك اذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة، عليه ثياب غليظة اكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير اتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية، فسلم وقعد . وقال: «يابني! استاذن لى على الوزير أبي مروان » فقلت له هو نائم،

هذا بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف — حملني على ذلك نزوة الصبي، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكت عني ساعة وقال : « ماهذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال : « أحب ان أعرف اسمه فاني كنت اعرف أسماء الكتب » فقلت « هو كتاب الاغاني فقال الى أين بلغ الكاتب منه قلت : « بلغ موضع كذا »

وجعلت اتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه، فقال: وما لكاتبك لايكتب ؟ قلت : طلبت منه الاصل الذي يكتب منه لاعارض هذه الاوراق، فقال لم أجىء به معي ، فقال يابني خذ كراريسك وعارض . قلت: بماذا ؟ وأين الاصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي . فتبسمت من قوله . فلما رأى تبسمي قال : يابني امسك علي . فأمسكت عليه وجعل يقرأ . فوالله إن أخطأ واوا ولا فاء . هكذا نحو كراسين . ثم أخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء . فاشتد عجبي، وقمت مسرعا حتى دخلت على أبي فأخبرته الخبر ووصفت له الرجل، فقام كما هو من فوره لايرفق على نفسه

وأنا بين يديه، وهو يوسعني لوما حتى ترامي على الرجل وعانقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: «يامولاي! اعذرني، فوالله ما أعلمني هذا الخلف الا الساعة» وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول: ماعرفني. وأبي يقول. هبه ماعرفك فما عذره في حسن الادب؟ ثم أدخله الدار واكرم مجلسه وخلا به، فتحدثا طويلا، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافيا حتى بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فاسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لاترجع اليه أبدا. فلما انفصل قلت لابي: من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم؟ فقال لي. اسكت! ويحك! هذا أديب الاندلس وسيدها في علم الادب. هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب الاغاني، وماحفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته[1] اه»

*
* *

أتينا بهذه الحكاية الطويلة الممتعة، الحافلة بكثير من عادات العرب وكيفية تقديرهم الادب والادباء، لنتبين منها ما يلي:

---

(١) المعجب

أولا ـ عناية الوزراء وأرباب السلطان بالادب ورجاله؛ ووضعهم إياهم فى المكان الاول من الاجلال والرفعة، وقد اطنبت الحكاية فى وصف ذلك

ثانيا ـ اهتمام الاندلسيين الشديد بنقل كتب الشرق ونسخها لتعم فائدتها. ولقد يزيدكم اقتناعا بهذا الرأى ما سمعتموه فى حينه من الحكم الثانى وعنايته الفائقة الحدود باقتناء الكتب النفيسة وجلبها من اقصى بلاد الشرق حتى لقد بادر بشراء كتاب الاغانى قبل ان ينشر فى الشرق نفسه [1]

ثالثا ـ شغف الاندلسيين بالاكثار من المحفوظات الى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس العرب دراسة جيدة، فان من لا يعرف المنزلة العالية التى وصلت اليها ملكات العرب فى الشرق [2] لا يستطيع تصديق هذه الحكاية وأمثالها مما يروونه عن عرب الاندلس [3]

رابعا ـ كان يكفى لاعتبار الانسان أديبا أن يكون

---

(١) ارجع الى ص (٢٢٧و٢٢٨)

(٢) سيمر بك شىء من ذلك في (ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩)

(٣) سيمر بك طرف من ذلك في (ص ٣٥٠)

ذا محفوظ كبير . كما كان يكفى للمقارنة بين أديبين أن يعرف أيهما أكثر محفوظا من صاحبه . وهو عندهم بلا ريب الأجدر بالفضل والاجلال . كذلك كانوا يفعلون وكذلك كان يفعل العرب الشرقيون من قبلهم [1]

---

(١) وحسبك دليلا على صحة ذلك ما امتلأت به كتب الادب من الحكايات المدهشة التي استشهدوا بها على تفوق العرب فى الحفظ ، والى القارىء عدة أمثلة هى قليل جداً من كثير جداً من أشباهها :

(١)

روى الأصمعى أن فتيانا جاءوا الى أبي ضمضم بعد العشاء ، فقال لهم : « ما جاء بكم يا خبثاء ؟ » قالوا : « جئناك نتحدث » قال . كذبتم ! بل قلتم : كبر الشيخ وتبلغته (أجهدته) السن ، عسى أن نأخذ عليه سقطة »

***

فأنشدهم لمائة شاعرهم اسمهم عمرو ، قال الاصمعى : « فعددت وخلف الأحمر فلم نقدر على اكثر من ثلاثين ! »

وقد علق ابن قتيبة على هذا الخبر بقوله : « هذا ما حفظه أبو ضمضم ، ولم يكن بأروى الناس »

وهكذا كان يشجعهم ملوكهم واولو الامر فيهم على

---

(٢)

واستدل مؤرخو الآداب على سعة حفظ الخوارزمي وغزارة مادته ، بحكايته مع الصاحب ابن عباد حين قصده وهو بأرجان ، فلما وصل الى بابه ، قال لأحد حجابه : « قل للصاحب على الباب أحد الأدباء ، وهو يستأذن فى الدخول » فدخل الحاجب وأخبره أن الصاحب لا يقبل الا من يحفظ نحو ستة عشر الف قصيدة ، فقال له الخوارزمي : ارجع اليه وقل له : « هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ »

قالوا : فدخل الحاجب ، فأعاد عليه ما سمع ، فقال الصاحب « هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ! » وأذن له فى الدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له !

(٣)

ولنجتزىء بالقطعة التالية التى نقتطفها من فصل ممتع كتبه الأديب البستانى في مقدمة الالياذة عن الحفاظ ، قال :

« وأما مبلغ الذاكرة عندهم (العرب) فمما لا يفوقه شيء في أخبار اليونان والرومان والافرنج ، وفي أخبارهم ما لو حذف منه شيء كثير ، لربا باقيه على مرويات اليونان قديمهم وحديثهم » الى أن قال :

الا كثار من الحفظ حتى وصلوا فى هذه الطريق الى حد

« فما بالك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظة حماد الراوية اذ امتحنه الوليد بن يزيد ، ووكل به من يسمع انشاده ، فأنشد تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية ، أو لو قيل لك .

«ان الاصمعى كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة كاملة ، ما خلا القصائد والمقاطيع ، وأخبار العرب ، بدوهم وحضرهم »

وهذا قول ـ مهما أنس فيه من المبالغة ـ لا يخلو من صحة بعضها كاف لاثبات ما توخيناه »

*

ولم يقل البستانى ان الذاكرة عند العرب مما لا يفوقه شيء في اخبار اليونان والرومان والافرنج ، الا بعد أن أتى لك ببضع أمثلة صادقة تتبين من خلالها تفوق تلك الامم في الحفظ ـ ومن تلك الامثلة التى استشهد بها ما نقله من رأى الكسندر شدزكو الذى ورد فى ص (٥٥٩) من الجزء الثالث عشر من مجلة العالمين Revue des deux Mondes وهو قوله :

« ان حفاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تصدق أن ذاكرة تعيه لكثرته ، فقد يظل المنشد يتغنى بأشعار الشهنامة (وهي الياذة الفرس) نهاراً كاملا » وما أدراك كم بيتاً يقال في نهار الى أن يقول :

« وقد ذكر كتاب الافرنج كثيرين ممن عنوا بحفظ كتاب أو منظومة ، فما لبثوا أن أدركوا بغيتهم كما كولى (Macauly) الذى أنشد نصف منظومة ملتن الانكليزية فى الفردوس الغابر » اه

يدعو للحيرة والدهشة (١)

---

(١) فقد أكثر ملوك الاندلس من اقتراح حفظ كتب بعينها، وخصوا من يفعل ذلك بجوائز مالية، فاشتد اقبال الناس على تنفيذ رغباتهم طمعاً في ذلك، وتم وصل حفاظ الاندلس الى درجة لا تقل عما وصل اليه حفاظ المشرق

* * *

حدث المراكشي صاحب كتاب المعجب، مخبراً عن أستاذه أبي جعفر احمد بن يحيي الحميري المتوفى سنة ٦١٠، وكان قد حضر عليه بقرطبة في سنة ٦٠٦ هـ. فقال:

«كان أبو جعفر آخر من انتهى اليه علم الآداب بالأندلس، لزمته نحواً من سنتين، فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر لحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه، أدرك جلة مشايخ الاندلس، فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب، وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته، وافراط شغفه بالعلم

قال لي ولده عصام، وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت علي أو أكثرها، فألفيتها شديدة الصحة؛ فقلت لقد كتبتها من أصل صحيح، وتحرزت في نقلها، فقال: «ما يمكن

— ٢ —

ابن عبدون والأصمعى

على أننا لو رجعنا الى أنفسنا قليلا، وذكرنا الاجلال والحفاوة الذين لقيهما الأصمعى مثلا من الملوك، لادركنا أن فكرة الاكثار من المحفوظ، ليست غريبة فى الاندلس فقد كانت بنفسها فى المشرق (١)

وبعد، فمن هو الاصمعى ؟

أليس هو آدب أديب فى الشرق ! فاذا لم تشأ أن تعد

أن يكون أصل أصح من الاصل لذى كتبت منه » فقلت: «أين هو ؟ » فقال لى : « عن يمينك » فعلمت أنه يريد الشيخ ،فقلت: « ما على يمينى الا الأستاذ ! » فقال لى: « هو أصلى ، والى املائه كتبت ، كان يملى من حفظه » فجعلت أتعجب ، فسمع الاستاذ حديثنا ، فالتفت الينا وقال : فيم انتما ؟ فاخبره ولده بالخبر ، فلما رأى تعجبي، قال : « بعيد ان تفلحوا ! يعجب احدكم من حفظ ديوان المتنبي ؟ والله لقد أدركت اقواما لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظا ، ولا يرونه مجتهداً ! »

(١) ارجع الى ص (٣٤٧ - ٣٤٩)

مسرفا، قلت هو من أساطين ادباء الشرق ! ثم ماهى ميزته على سواه ؟ وما هي الموهبة النادرة التى أحلته ذلك المكان الأول بين اساطين الادب ورجاله الافذاذ ؟ أهى آراؤه القيمة وانتقاداته الثمينة ؟ أم هى انه كان ذا مذهب خاص فى الأدب كمذهب عبد القادر الجرجانى أو مذهب تين أو غيرهما ؟ أم هى أنه تفرد بين رجال البلاغة بعبقرية جبارة كانت سببا فى نقل الشعر من مكانه وتقدم البلاغة العربية خطوات واسعة، وتطور الافكار من حالة الى حالة ؟

اللهم لم يكن واحداً من هؤلاء، ولم تكن شهرته العظيمة لسبب من هذه الاسباب، فان تاريخ الرجل ينبئنا أنه لم يكن ذا رأى خاص في الأدب العربى ولا فى سواه، ولكنه كان رجلا يمتاز عن غيره بأن من أيسر محفوظاته كذا من آلاف القصائد والاراجيز، تلك هي أهم مواهبه فاذا طلبت من تاريخه أكثر من ذلك لم تعد بطائل، فلقد تقرأ كل أحاديثه واخباره فلا تجد فيها ما يشعرك حتى بأنه مفكر غير عادى ! !

كذلك كان ابن عبدون صورة مصغرة للأصمعى، فاذا

كنا أخطأنا فى تقديره وكان هو أكبر من ذلك ، فهو صورة تامة للأصمعى ، فاذا زادت رتبته فهو صورة مكبرة له ، وهو بعد كل هذا رجل راوية ، ملأ حافظته بكلام طويل لم يفكر فى انتقاد غثه من سمينه (١)

— ٣ —

أثر الحفظ فى الشعر العربى

وانا لنسائل أنفسنا الآن ، وحق لنا ذلك : أئذا شغلت الحافظة بمثل هـذا السفر الكبير الذى بلغ عدد أجزائه واحدا وعشرين مجلدا من اكبر المجلدات - أيبقى ثمت شىء يذكر للمفكرة و للمخيلة وغيرهمـا ؟؟ ثم ماذا يبقى بعد من شخصية الشاعر التى اندمجت كل الاندماج فى أرواح من سبقه (٢) ... ! لا شىء لا شىء !

---

(٢) يحضرنا بهذه المناسبة قول الاستاذ الامام محمد عبده ، حين بلغه ان اديبا استظهر مختار الصحاح ، فأجاب : « حسنا جداً . لقد زادت عندنا نسخة اخري من نسخ هذا الكتاب ! »

(١) ولا ننس ان اغلب من سبقوه قـد كانوا كذلك متحدى اللهجات ، لان ملكاتهم تكونت من المحفوظات !

*
* *

اذن فليس بعجيب أن يعجز ذلك الشاعر عن ابتكار شيء جديد أو انتحاء طريق خاصة فى التفكير، فإن تكوينه لا يساعده علي ذلك ، واذا كنا نعتقد أن الانسان قد يقرأ كتابا من كتب الادب أو صحيفـة من الصحف فيعلق بذهنه بضع أساليب يستعملها من غير أن يشعر بذلك ، أفلا يجوز لنا أن نفهم السر فى تشابه الشعر العربى وتقارب معانيه وأغراضه ـ ان لم نقل تطابقها فى اغلب القصائد ـ ثم أفلا نستطيع أن ندرك بعد السبب الا كبر فى وقوف الشعر العربى نحو عشرة قرون وعدم انتقاله من مكانه انتقالا يدعو الى الغبطة ؟ ـ لقد طالما احتار الانسان فى تعليل تلك النكبة التى أصابت الشعر العربي فأرهقته ، ولطالما حاولنا الوصول الى تعليل معقول نهتدى به الى السر فى اتفاق أساليب شعراء العربية ـ على الخصوص ـ وسبب تلاشى شخصياتهم جميعا الا الشاذ منهم الذى قد لا يتجاوز عدده أصابع اليد الواحدة ، بالرغم من أن الشعر العربي كله تقريبا شعر وجدانى ـ أى شعر عاطفى تتجلى فيه شخصية الشاعر واضحة

لكل ناقد خبير – ولكن هذه الحكاية وأشباهها الكثيرات ، التي نتبين منها عناية العرب الفائقة الحدود بالاكثار من المحفوظ ، وقول أحد ادبائهم :

احفظ تقل ما شئته ان الكلام من الكلام !

كل ذلك يميط لنا اللثام عن السر فى تأخر الشعر العربى ، ويعلل لنا السبب فى تلاشي شخصية شعراء العرب بل فنائها فى اغلب قصيدهم

*
* *

ولا يحق لنا أن ننسى أن كثرة المحفوظ تدعو الى متانة الأسلوب، ولكنها من ناحية اخرى تدعو الى فناء الشخصية وقتل المفكرة قتلا – ولو أنهم كانوا يحفظون فينتقدون ما يحفظونه انتقادا يظهر صادق الادب من زائفه لبقي ثمت أمل كبير فى انتقال الشعر العربى وتدرجه فى سبيل الكمال ، ولكن أني يكون ذلك وقد اتخذوا ماحفظوه عن أسلافهم نماذج عالية وأمثلة من مثل الكمال التي تسمو عن مستوى النقد ، كما تلقفوا بجانب ذلك عدة أحكام على الشعراء والأدباء لا تدل على اصالة فكر مطلقا !

*
* *

ذلك فى نظرنا ـ داء عياء استحكم فيهم فرجع بهم القهقرى، ونكبنا فى الشعر العربي والبلاغة العربية . ولو اتيح لهما افراد قلائل على شاكلة عبد القاهر الجرجانى وعبدالعزيز الجرجانى، لعرفوا كيف ينتقلون بالبلاغة العربية الى المكان الذى وصلت اليه بلاغة الغربيين فى هذه الأيام !

الخطأ والصواب

في الكتاب عدة اخطاء مطبعية قليلة وقعت سهوا ، ولا نحسبها تخفى القارىء ، ولكن لا يسعنا أن نغفل التنبيه على ما يلى:

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٥	٦	الناصر	الداخل
٧	٢	الحادى عشر	التاسع
٩٤	٨	الرابع	الخامس
٤	٩	٣٥٩	٤٥٩

DATE DUE

